الأخاعي

رواية

عادل مرسي

دار بيوند للنشر والتوزيع
٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
٠١٠٩٦٩٠٠٠٠٧
Beyond.dbh@gmail.com

جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها .ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

الكتاب: الأفاعي
المؤلف: عادل مرسي
الطبعة: الأولى
تصنيف الكتاب: رواية
تصميم الغلاف:
التدقيق اللغوي: دكتور أسامة الحناوي
الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي
رقم الإيداع: ٢٠١٨ / ٢٣٢٠٠
الترقيم الدولي: ٦-٣٥-٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

دار (بيوند) للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة
محمد عز الدين

المدير العام
صبرينة غلمي

مدير التنفيد
جلال عز الدين

+٢ ٠١٠٩٥٦٠٠٠٠٧

beyond.dbh@gmail.com

www.facebook.com/beyond.PDH

إهداء

إلى من افتقدها دوما وعلى الدوام.. رحمة الله عليكي يا أمي.

إلى زوجتي الحبيبة.. أشكرك على تحمل شخص متقلب باستمرار مثلي.

إلى من اكافح ليفخروا بي..

الأمير.. نور.

الأميرة...فرح.

البرنسيس.. هنا.

الفصل الأول

ـــــ ١ ـــــ

لم يجل بخاطري أبدًا أن تضعني الأقدار ها هنا يومًا ما ، أتألّم كل يوم دون جديد ، نفْس الملل ، نفْس الوجوه ، نفْس الجدران ، نفْس الهدوء القاتل .. عدا هذه الليلة .
أسمعُ أصوات متفرقة ، لا أدري مصدرها تحديدًا ، لكنني أشعر أن هناك ما يُدَبّر في الخفاء .
إعتدلت في فراشي ، مشيْتُ بخطوات بطيئة بإتجاه النافذة الوحيدة الموجودة التي لم يشفع لِمَن بناها ضيق مساحتها ، فأضاف لحجمها الهزيل عِدّة قضبان مِن باب الإمعان في تصدير الإكتئاب ، إقتربت منها مُصغيًا السمع في الظلام ، ليفاجئني صوت "طلبة" الخشن :
- هو إيه إللّي مسهّرك لحد دلوقت يا عم "حمدي" ؟ .
إنتفضت ناظرًا تجاههُ : ولا حاجة يا "طلبة" يابني أصلي سمعت صوت غريب جايْ مِن الحُوش.
رد بجفاء :
- ماتشغلش بالك يا عم "حمدي" ، إرجع نام في فرْشِتك وقول أعوذُ بالله مِن الشيطان الرجيم .
هززت رأسي بطاعة تامة وعُدت مِن حيثُ أتيْت ، أمام كِبَر سنّي لا أملكُ مع الجميع سِوى الطاعة ، فكيف لعجوز مِثلي تخطّى السِتين ببضع سنوات أن يعترض أو يعصَى أيٌ مِن المجرمين الذين يرافقونه حياته منذ أكثر مِن ثلاثة أعوام ، ولازال باقي عامان آخران ، أو على الأقل بضعة شهور إن خرجت مِن هنا قبل ميعادي لحسن السِير والسلوك .

نعم أنا نزيل في سِجن "الفيوم" المركزي منذُ حوالي ثلاث سنوات ، نزيل غيرُ مُعترف بِجرمه الذي أقرّهُ كل مَن كان بالمحكمة حتى مُحاميهِ الذي دافعَ عنهُ .. وهُم جميعًا مُخطئون .
كيف يُسجَنُ رجل نجحَ في إسترداد ما سُرِقَ مِنه ، مع أنهم إعترَفوا بحقّي لكنهم إستنكروا أن أسترجعه.. مهزلة .
مهزلة إنتهت بتواجدي هنا وسط عشرة مِن كبار المجرمين في المجالات المُختلفة يتزَعمَهم "طلبة" بِحكم أقدِميّتهُ في المكان فهو هنا منذُ خمسة عشرة عامًا ، أو مِن الوارد أنه الزعيم لأنه محكوم عليهِ بالمؤبّد لكونهِ كان قاتلًا مُحترفًا ، أو يجوز لأيّ سبب آخر ، في كل الأحوال هو حاليًا الحاكم بأمرهِ في عنبر يُشبه كثيرًا عنابر تربية الماشية مِن حيثُ الزي المُوَحّد وآنية الطعام المُوحّدة وللأسف المرحاض المُشترك الذي لا باب له وإنما سِتارة بالية هشّة .
الجميع هنا يعلم القواعد داخل العنبر حيث "طلبة" هو الزعيم وحتى خارجه عندما يقل نفوذه قليلًا وينتقل لأصحاب الزيّ الحكومي المُوَحد الذي يختلف فقط فيما يُوضع على الأكتاف أو الهامات .
بدأ صوت كالضجيج يعلو في الخارج ، أصخيت سمعي مُحاولًا إستنتاج أي شيء ، لحظات وقام "طلبة" مُتجهًا إلى سرير في آخر العنبر ثم هزّ أحد المساجين بقسوة : "بيبو" إصحى ياض .
لمحت "بيبو" وهو يعتدل مُتثائبًا : إيه .. خير يا معلم في إيه ؟ .
فشل "طلبة" أن يُخفض درجة صوتِهِ وهو يقول : إصحى ياض عايزك في مصلحة .
رد "بيبو" بسخرية : مصلحة إيه يا معلم في الضلمة دي .. ما إنت عارف .. ماليش في الشِمال .
جاوبُهُ "طلبة" مُتهكمًا : هو أنا لو هفكّر في الشِمال ، مِش هلاقي غير عود قصَبْ ممصوص زيّك .. ده إنت بُرصْ ياض لا تنفع طبلة ولا تار .
رد "بيبو" ضاحكًا : طيّب الحمد لله .. خير بقى عايز إيه ؟ .

ناولهُ "طلبة" شيء لم أتمكن جيّدًا مِن رؤيته وهو يقول : خد .. عايزك تكسر قفل باب العنبر .
رد بصوت وضح عليهِ أَثَر المفاجأة :
- معلش يا معلم بَس أنا مِش حابِب آخد سنتين زيادة ، أنا باقي لي سنة واحدة ومِش عايز أزوّدها.
وضعَ "طلبة" يده الغليظة على كتفهِ النحيل قائلًا :
- هتاخد سنتين لو حاولت الهرب ، إنما إنت هتكسر القفل وترجع تكمّل نوم عادي .
رد "بيبو" بصوت حاول أن يجعلهُ مرحًا : لا مؤاخذة يا معلم إعفيني مِن الطلعة دي ، ثم أنا راجل حرامي عربيات ، يعني كسر الأقفال والجنازير ده مِش تخصصي .
أنهى "طلبة" الحوار بأن قال بتهديد واضح :
- قوم يا "بيبو" إكسر القفل عشان ما أزعلش ، إنت فاهم إني لو زعلت ، مِش هيفرق معايا إذا كنت عود قصَبْ ممصوص ولا غزالة .. قوم يابني إستهدَى بالله .
ثَبَتَ "بيبو" لحظات .. كان يعلم أن مُعظم المساجين قد إستيقظوا على صوتهما أو الأصوات الغريبة المُتداخلة المسموعة مِن الخارج ، ويعلم أيضًا أنه لن يجرؤ أحدهم على التدخّل إذا ما قرّر "طلبة" الإعتداء عليهِ أو إغتصابهِ أو حتى قتله ، ولأن لص السيارات هذا يتّسم بالذكاء فقد هبّ مِن فراشِه مُتجهًا إلى باب العنبر وهو يقول :
- ماشي يا معلم ، بَس أنا عايز أؤكد لسيادتك إن في مادة في قانون العقوبات بتقول إن المجرم إللّي بيحاول يهرب مِن السِجن بيزعلوا منه زَعَلْ جامد وبينفخوه ولا مؤاخذة .
إبتسم "طلبة" ولم يُعلّق حتى وصلا إلى الباب الذي شَرَعَ "بيبو" في محاولة فتحهِ مُستطردًا :

- مِش عارف ليه يا معلم عايز تسيبنا وتهرب ، ده حتى إنت هنا الزعيم والكُل في الكُل ، وعلى رأي المَثَل .. خلّيك هنا خلّيك ، بلاش تِفارق .
- إخلص يا روح أمك .

إلتزم "بيبو" الصمت وشَرَع يُحاول كسر القفل بإستخدام آلة غريبة .. "طقّاشة" على ما يبدو ، بعد لحظات سمعت صوت تكّة عالية ثم فتح "طلبة" باب العنبر وعلى شفتيهِ إبتسامة واثقة :

- عفارم عليك .. إرجع بقى يا عود القَصَبْ كمّل نومك .

خرج مِن العنبر تاركًا بابه مفتوحًا ، عاد "بيبو" إلى فراشِهِ لكنه لم ينم ، إنما ظل جالسًا يترقّب ، بدأت أسمع همهمات المساجين الذي بدأ بعضهم يشجع الباقين على إستكشاف الوضع .

فجأة دوى صوت طلق ناري أعقبه ضجيج عالي في أحد العنابر بالطابق الأسفل ، وكأنها كانت إشارة البدء ، هبّ المساجين جميعًا بإتجاه باب العنبر وكنت آخر مَن خرَجْ .

عنبر رقم سبعة الذي أُلقيت فيه منذُ وطأت قدميّ هذا المكان يقع في الدور الثاني مِن أحد مباني السجن ، يجاورهُ خمسة عنابر آخرين في كل منهم عشرة مساجين ، بمعنى أن الدور الثاني مِن هذا المبنى فقط بهِ خمسون سجينًا .

عندما خرجت فوجئت أن كل العنابر مفتوحة بنفْس الطريقة في نفْس التوقيت ، وفوجئت أكثر بأن مدخل الرواق الرئيسي المُفترض إغلاقه بعدّة أقفال وعليهِ حارس بإستمرار مفتوح وبغير حارسه، بدأ المساجين في الخروج بإندفاع لكنهم توَخّوا الحذَر عندما سُمِعَ صوت طلقات ناريّة في الفناء مع صيحات غاضبة مِن الضُبّاط .

ثبَتوا جميعًا لبرهة صغيرة ثم تشجّعوا مرة ثانية وبدأوا نزول السلم بحذر.

لا أدري لماذا لم أرجع زنزانتي ؟ ، وجدتني أهبط خلفهم ، في الطابق الأسفل وجدت بعض المساجين الذين نجحوا في الخروج يساعدوا زملائهم في كسر أقفال العنابر التي لازالت مُغلقة .

الجديد في هذا الطابق أني وجدت العسكري المُكلف بالحراسة وهو مُلقى على وجهه مع وجود نزيف في رأسِهِ ، لا أدري إن كان لا زال على قيد الحياة أمْ فارقها .
ثَبَتّ مكاني ولم أشترك معهم في كسر باب الطابق المؤدّي للفناء الخارجي للسجن ،قبل أن يندفعوا للفناء مُطلقين صيحات عالية كأنهم يُشجعون بعضهم ، لم يهدأوا حتي بعدما سمعنا جميعًا صوت طلقة تحذيرية مع تصريح واضح مِن أحد الضبّاط بأن مَن سيتواجد في الفناء سيتم قتلهِ بلا رحمة.
وقفت بجانب الباب مُتسائلًا عن كيفيّة خروج المساجين مِن مباني السجن الثلاثة في نفس التوقيت، قطع سيل تساؤلاتي خروج اللواء "محمد بدران" مأمور السجن مِن المبنى المُواجه لي تمامًا ، خرجَ وحده صائحًا في المساجين أن عودوا إلى عنابركم حالًا ، في الحال هاجمهُ أحدهم لكن اللواء "البدران" عاجلهُ برصاصة في قدَمه سقط على أثرها أرضًا متؤلمًا ، تقدّم عِدّة خطوات داخل الفناء مُكررًا تحذيره وهو يُطلق رصاصة أخرى على فخذ أقرب سجين إليهِ ، مع سقوط السجين الثاني بدأ البعض يُهرول نحو مباني السجن ويبتعد عن الأسوار ، علاوة على أن العسكري القابع في برج التأمين أعلى السور بدأ يتشجّع ويُطلق عِدّة طلقات في الهواء .
إندفع المساجين إلى مباني السجن ثانيةً وبدا كأنّ محاولة هروب جماعي كبرى تبوء بالفشل .
تنحّيت بجسدي جانبًا مُتفاديًا إندفاع البعض إلى المبنى ناظرًا لهذا اللواء الشجاع بإحترام ، مِن زاويتي وبالرغم مِن إضاءة الفناء الخافتة ، لكن إضاءة المبنى المُواجه لي كانت جيّدة ، على أثرها رأيت رجل ضخم الجثة يرتدي حُلّة سوداء كاملة ، رأيت نظرة الغدر في عينيهِ وإبتسامته الساخرة على شفتيه ، شعرت بهدوئهِ وهو يقترب مِن اللواء مُصوّبًا سلاح ناري نحو ظهرهِ كأفعى تزحف بثقة نحو فريستها ، وبهدوء كامل

أطلق رصاصتين مِن مُسدّس مُزوّد بكاتم صوت .. يبدو أنه مثل الأفاعي لا يحب الضجيج .. يقتل في صمت .
لم أستطع السيطرة على نفسي وأنا أصرخ مُشيرًا إليه : قتله .. الراجل ده قتل اللواء "البدران" .
مِن الواضح أنه لم يستسِغ حماقتي ، فقد نظر لي بوحشيّة وهو يُصوّب سلاحهُ نحوي ، إندفعت مُهرولًا بكل ما أُوتيت مِن قوة مُحاولًا التغلّب على وهني وسِمنتي .
سمعت أزيز رصاصة تمر بجواري مُتخذة طريقها لجدار المبني الذي خرجتُ منه ، ثم رصاصة أخرى كانت في طريقها إليّ لكن إعترضها جسد أحد المساجين المُندفعين ، قبل أن يُصوّب القاتل رصاصتهُ الثالثة فوجئ بإطلاق نار نحوهُ مِن العسكري القائم على الحراسة في أحد أبراج المُراقبة ، قفزَ القاتل جانبًا قفزة تدل على لياقة بدنية جيّدة وهو يُصوّب سلاحه نحو البرج ويُطلق عِدّة رصاصات ، بعدها رأى الجميع جثة العسكري تسقط مِن أعلى البرج ، مع سقوطها إندفع المساجين بكثافة أكثر نحو الأسوار .
إختبئت عند أحد أطراف السور مُراقبًا القاتل وهو يبحث عنّي بين الجموع الهاربة ، أخذت أتسلل لأبعد نقطة في السور بعيدًا عن عينيهِ ، أريد الهرب منه وساقاي لا تحتملان ثِقَلْ جسدي ، قلبي المريض ينبض بقوة ، أنفاسي مُتلاحقة ، وللأسف لا أستطيع العودة إلى زنزانتي ، فمَن قتل مأمور السجن يستطيع بسهولة قنصِي إذا ما عُدتْ ، لابد مِن الهروب مِن هنا .. لكن كيف ؟ .
إستندت إلى السور لاهثًا بشدة فوجدت بعض المساجين قد حصلوا على حبل مِن ورشة النجارة بالسجن ، قاموا بتركيب خُطّاف كبير له ، بعد أكثر مِن محاولة نجحوا في قذفِهِ لأعلى السور ، مِن ثَمّ التسلق عليهِ للخارج ،إقتربت منهم مُستجديًا فلن أستطيع أبدًا تسلّق هذا السور العالي وحدي ، بالطبع لم يعيرني أحد أي إهتمام ، تَلفّتُ حولي باحثًا عن مَن

يُساعدني فوجدتهُ يقترب بجسدهِ الممشوق وعضلاتهِ البارزة ووجهه الأسمر الصلب ذي الشارب الكث والشعر الأسود الفاحم .
"خالد الشناوي" .. أحد نُزلاء عنبري وأكثرهم غموضًا ، الجميع نفر منه لعلاقتهُ القويّة بالضُبّاط ،فقد قيل أنه كان ضابطًا سابقًا قبل إيداعهِ السجن كذلك لبطشهِ الشديد مِن مَن حاولوا إختبار قوته.
- والنبي يا "خالد" يابني .. ممكن تساعدني في طلوع السور ؟ .
بالرغم مِن لهجة الإستعطاف في كلامي إلا أنه نظر لي بطرف عينهُ وهو يرد ببرود : لأ .
إنتظر حتى تسلق أحد المساجين ثم أمسك طرف الحبل وقبل أن يبدأ التسلّق عاجلته بإستجداء :
- بَص يا "خالد" .. لو ساعدتني في الهرب مِن هِنا ، أوعدك إني هدّيك مبلغ ماتحلمش به .
إلتفَتَ لي نصف إلتفاتة قائلا : إسمع يا "حمدي" ، أنا عارف القضية بتاعتك وعارف إنت دخلت هنا في إيه ، وبرضه عارف إنك مِدَكّن مبلغ كبير غير إللّي إتمسكت به .
- أيوة يا "خالد" .. في مبلغ حلو أنا دفنته في حِتّة ، لو ساعدتني في الهرب .. هدّيك مليون جنيه .
نظر في عيني مباشرة وهو يقول بجمود : إنت شايل كام ؟ .
لم يستغرق ترددي لحظات وأجبتهُ : خمستاشر مليون جنيه .
لم يستغرق ردّهُ لحظات وأجاب : هاخد نصّهم .. قلت إيه ؟ .
لم أكن أملك رفاهية الرفض أو وقت للتفاوض ، لذا هززت رأسي صائحًا: إتفقنا .
قبل أن يرد "خالد" سمعنا صوت مرح يقول بلهجة ساخرة : طيّب والنبي ينفع تهربوا مِن غيري!
وصمت لحظة قبل أن يستطرد بنفْس طريقته :

- أنـا رأيـي إن بَدَلْ مـا كل واحد فيكم ياخد سبعة مليون ونُص ، الأحسن نهرب إحنا التلاتة وكل واحد فينـا ياخد خمسـة مليون ، حلو رقم خمسة مِش كده .. عشان الحسد .

ثم أكمَلَ بإبتسامة لزجة : رغم إنكم تعرفوني كويّس ، بَسْ برضه أعرفكم بنفسـي تـاني ، محسوبكم "بدر الزينـي" ، بَسْ طالمـا إحنـا خـلاص بقينـا شركاء ، يبقى ينفع تندهولي يا "بيبو" عادي .

_ ٢ _

ألقى "بيبو" عبارتهُ ، فإنقلب وجه "خالد" وهو ينظر له قائلًا بإمتعاض :
- بَس إحنا مِش محتاجين شريك تالت .
إتجه "بيبو" نحو الحبل وأَخَذَ يجذبه بقوة ليتأكّد مِن مَدى قوته ثم أجابَ بعدم إكتراث :
- واللهِ في حديث عن النبي بيقول إللّي معناه .. إن إللّي يحضر التقسيم ، يُدخل في القسمة على طول ، إوعى تعترض بقى على كلام سيدنا النبي .
وضع"خالد" يدهُ على كتفهِ بقوة وقبل أن يتكلم دفعه "بيبو" في صدرهِ بعنف ناظرًا في عينيهِ بثقة:
- إسمع يا "خالد" باشا ،إنت خلاص مِش في الداخلية يعني زيّك زيّنا ، ومِن الآخر كده وعلى بلاطة .. فيها يا أخفيها .
مع إرتفاع وتيرة الحديث أصبح التدخّل حتميّا خاصةً أن المال المُختلَف على تقسيمِهِ هو مالي أنا بالأساس ، لذا قُلت بصوت حاولت أن يبدو صارمًا : خلاص يا جماعة .
ثم أكملت مُخاطبًا "خالد" : خلاص يا "خالد" يابني .. مفيش مشكلة إن "بيبو" يدخل معانا .
لاحت على شفتي "بيبو" إبتسامة نصر ،قابلتها نظرة غاضبة مِن "خالد" لكنه هز كتفيهِ بلامبالاة:
- براحتك .. بَس أنا كِده كِده هاخد السبعة مليون ونُص .
أشرت لهما بمعنى أن الكلام إنتهى ، على الفوربدأ "بيبو" تسلّق الحبل إلى أن وَصَلَ لأعلى السور ، بعدها تسلّق "خالد حتى وَصَلَ بجواره ، ثم نظر لي قائلًا بلهجة آمرة :

- لِف الحبل على وسطك وإمسك فيه كويّس ، أنا والواد ده هنرفعك مِن هنا ، إنت بَس حاول تساعدنا إنك تسند برجلك على السور .

نفّذت ما قاله وبعد مجهود مُضني بذلته ومجهود خارق منهما ، نجحت في الإمساك بطرف السور مِن أعلى وجلست عليهِ ألتقط أنفاسي بصعوبة شديدة ، بينما تولّى "بيبو" إلقاء التعليمات هذه المرّة حيث نظر لـ "خالد" قائلًا :

- أنا هَنُطْ وإنت شِد الحبل على وسطه جامد ونزّله بالراحة ، وأنا هستلمه منك تحت .

أعقب كلامه بالتطبيق العملي ، إذ أمسك طرف السور بيديهِ تاركًا جسده يتدلّى لأسفل ثم قفز برشاقة ، في حين قام "خالد" بلفّ الحبل حول خصري قائلا بصرامة :

- عايزك تسند على السور جامد وإنت نازل ، خد بالك إن جسمك تقيل و... .

فجأة توقف "خالد" عن التعليمات وهو ينظر لشيء خلف ظهري ، إستدرت بحدة لأجد شعاع ليزر أحمر مُوَجّهْ إلى رأسي ، مصدرهُ بندقيّة قناص ، قناص رابض أعلى سطح مبنى الإدارة ، وبما أنهُ يريد قنصي أنا تحديدًا دونًا عن باقي المساجين ، إذن حتمًا هذا القناص يرتدى حُلّة سوداء كاملة ويتساقط مِن يديهِ دماء مأمور السجن ، وهو الآن يستعد لقتل الشاهد الوحيد .

أطلقت شهقة ذعر عالية مُنتظرًا الرصاصة الآتية لا محالة ، مع صوت الرصاصة تعامل "خالد" مع الموقف بسرعة رد فعل يُحسد عليها ، إذ دفعني بقوة لأسقط معهُ مِن أعلى السور .

تكفّل "خالد" بتخفيف حِدّة السقوط قدر إستطاعتهُ ، أمّا "بيبو" فقد حال دون إرتطام رأسي بالأرض إذ أمسك كتفيّ بقوة أدهشتني ، رغم كل هذا فقد آلمني السقوط بشدّة على الأخص قدمي اليُمنى التي جعلتني أصرخ مِن الألم لدرجة شعرت معها أنّي سأفقد الوعيْ .

نظر "بيبو" لـ "خالد" قائلًا بغضب : إيه يا عم إللّي بتعمله ده !!؟ ، كنت هتموّت الراجل .
رد "خالد" بإقتضاب : في قنّاص فوق السُطح .. كان هيقتله .
غمغم "بيبو" بدهشة : وإشمعنى يقتله هوّ بالذات !! ، ما المساجين كتير.
- ماعرفش .. بَس مِش دي المشكلة ، المشكلة إن الراجل إللّي عايز يقتله ده معاه سلاح وممكن نلاقيه قُدّامنا في أيّ وقت ، يبقى لازم نمشي مِن هنا بسرعة .
أمسك "بيبو" برأسي وأَخَذَ يُدَلّك صدري ورقبتي :عم "حمدي" .. فوق يا عم "حمدي" .
كنت واعيًا جدًا لما يحدث حولي لكني عاجز عن التعامل معه ، عيني شِبهُ مغمضة وغير قادر على الحديث ، مع ذلك أشرتُ له برأسي بمعنى أني بخير .
قال "خالد" لـ "بيبو" بلهجة آمرة : بُص .. إنتشر في الزراعية وحاول تلاقي مكان نستخبّى فيه .
رد "بيبو" بخبث : أيوة .. عشان أرجع ألاقيك إختفيت إنت والراجل .. مِش كده .
رد "خالد" بزفرة ضيق :
- خلاص .. خليك معاه ، ما إنت كده كده مِش هتقدر تشيله وأنا هشوف المكان وأرجعلك .
ثم تعاونا في حملي ووضعي تحت شجرة في بقعة مُظلمة ، وبمجرّد إنصراف "خالد" أشعل "بيبو" سيجارة ثم إلتفت ناحيتي سائلًا : إنت كويّس يا عم "حمدي" ؟ .
هززت رأسي إيجابًا بصعوبة فنظر "بيبو" في عينيّ وهو يقول بصوت أقرب إلى السخرية :
- عارف يا عم "حمدي" لو طلعت بتشتغلني والحوار في النهاية يرسَى على مفيش .. عارف ساعتها ممكن أعمل فيك إيه ؟ .

جاوبتهُ بإيماءة تعني أني أعرف ، منحني إبتسامة لزجة وهو يهز رأسه نفيًا :

- لأ ماتعرفش .. لأنك ماتعرفش مين هوّ "بدر الزيني" .

ثم أشاح بوجههِ بعيدًا وأَخَذَ يدخّن سيجارته في صمت .

لا يا شريك رحلة الهروب .. أنا أعلم جيّدًا مَن هو "بدر الزيني" .

"بدر" أو "بيبو" ، شاب دون الثلاثين ، مُسجّل خطر سرقة سيّارات ، دَخَلَ السجن بعد ضبطهِ مُتلبّسًا بسرقة سيّارة ملّاكي وأَخَذَ حُكمًا ثلاث سنوات ،قضى منهما عامين وتبقّى له بضع شهور .

أوقعتهُ الظروف في عنبر رقم سبعة الذي كنت قد سبقتُهُ إليه ، بايَعَ "طلبة" بمجرّد دخولهُ الزنزانة مُبديًا فروض الطاعة مُلتزمًا بدفع الأتاوة المفروضة بكل ترحاب .

أينما وُجِدَ "بيبو" في مجموعة حلّت بها الضحكات ، فهو مميّز جدًا بأسلوبهِ المرح ونجاحه في لعب دور المُثقّف مُستغلًا ضحالة تفكير مَن يُلقى عليهم آرائهِ ، لذلك نَجَحَ بسرعة في تكوين صداقات عديدة مع الحَرَسْ وأيضًا بعض المساجين خاصةً المهمين منهم .

لكن يبدو أن أسلوبه وإنتشارهُ لم يرقْ لأحد المساجين ، ففي ضُحَى أحد الأيّام وأثناء فترة التريّض إحتكّ به أحدهم ، على الرغم أن "بيبو" لم يكن راغبًا أبدًا في الشجار لكن خصمهُ كان مصممًا عليه ، إذ هاجم "بيبو" بشراسة وإعتدى عليهِ لفظيًا وجسديًا مُحدثًا بعض الكدمات في وجهه .

راهنت نفسي أنه لن يترك هذا الموقف يمرّ مرور الكرام ، على الرغم أن "بيبو" نفسه قد أظهَرَ تسامح كبير مع خصمهُ عندما سعَى "طلبة" وبعض كبار المساجين في محاولة الصُلح ، فقد قَبِلَ الصُلح فورًا دون أيّ شروط ، بل وقام أيضًا بتقبيل رأس خصمه مع أنه المجني عليه لا الجاني ، بعد الصُلح بحوالي عشرة أيّام ، لاحظت أن "بيبو" أَخَذَ يتقرّب مِن "طلبة" ومِن بعض عتاة الإجرام ويُغدِقَ عليهم بالهدايا ، إعتقدت وقتها أنهُ سيستأجِرَ أحدهم لإيذاء خصمهُ ، لكنه فاقَ توقعاتي ، إذ بهِ في

صباح أحد الأيام وقت فترة التريّض ، كان خصمهُ جالس تحت ظِل شجرة ، مرّ "بيبو" أمامهُ واضعًا سيجارة مُشتعلة في فمه وممسكًا دلوْ في يديه ، ثم وبهدوء شديد سكب ما بالدلوْ عليهِ كأنهُ يُداعبه وبطريقة ظنّ بها الجميع أن ما سُكِبَ على الرجل ماء ، إنما في الحقيقة أن ما سكبه بنزين ، قبل أن يفهم الرجل أو يستوعب ما حَدَثْ كان قد قذفه بالسيجارة المُشتعلة .

بالطبع أمسكت بهِ النيران وأَخَذ يندفع في كل إتجاه مُحاولًا إطفائها ، أخيرًا نجح بمساعدة عدد مِن زملائه ، لكن بعد أن أُصيب بحروق عديدة بعضُها خطير ، في حين كان "بيبو" يصيح ضاحكًا :

- شُفت غلاوتك عندي قد إيه ، واللهِ يا جدعان إشتريت عشان خاطره بنزين إتنين وتسعين ، كان ممكن أسترخص وأجيب سولار وخلاص ، بَس أنا قُلت لأ .. الغالي يترش بالغالي .

ثم أَخَذَ يُقهقه ضاحكًا وهو ينصرف مُتأكّدًا أن خصمه سيعجز في النيْل منه ، فقد رشَى "بيبو" كل كبار بلطجيّة السجن وهُم الحُكام الفعليّون هنا، ولن يُفكر خصمهُ أبدًا في تخطّيهم بإبلاغ الحَرَسْ لأن هذا سيُثير غضبهم وهو يعلم ، كذلك لن يتدخّل الحرس إلّا مع شكوَى رسميّة .. بالتالي سينتهي الأمر في هذه الدائرة المُفرغة وسيقبل خصمهُ بالصلح ، وقد كان وهذا ما نجح فيه ، ونجح أيضًا في إيصال رسالة للجميع بأنني هنا وأستطيع فعل الكثير ، أنا لستُ آكل عشب وسط غابة الوحوش هذه، إنما أنا ثُعبان سام أو أفعى رقطاء تستطيع بث سُمّها عن بُعدْ .

هذا ما أريدهُ .. ثعبان سام يُرافقني رحلتي لأني مُطارد مِن ثعبان آخر، ولا يَفِلّ الحديد إلا الحديد .

عاد "خالد" بخطوات ثابتة ، إقترب بوجههِ الصلب الذي لا يُشير إلى أي إنفعال قائلًا :

- الدنيا بايظة على الآخر ، المساجين بتجري في كل حِتة ، ومفيش حد بيقول لهم رايحين فين .

ضحك "بيبو" وهو يقول : عِزّ الطَلَبْ ، مفيش أحلَى مِن كده .

هزّ "خالد" رأسهُ مُوافقًا وهو يشير بيده ناحية الأشجار : في طريق في آخر حِتّة الأرض دي ، تعالَى نِسنِد "حمدي" ونوصل هناك ، يمكن نتصرّف في عربيّة أو نِعمل أيّ حاجة .
وضعت ساعديّ علَى كتف كلٍ منهما مُحاولًا السيْر بصعوبة وسط الأرض الزراعيّة ، بعد مجهود كبير وصلنا عند آخر الحقول ووجدنا طريق أسفلتي ، قال "بيبو" :
- أنا هطلع على السّكة أشاور لأيّ عربيّة ، يمكن حد يرضَى ياخدنا معاه .
رد "خالد" مُتهكمًا : ومين ده إن شاء الله إللي هيقف وهو سامع صوت ضرب نار ، كمان إللّي بيشاور له لابس لِبس السجن .
تلفتّ حولي فلمحت ضوء آت مِن بعيد ، أشرت إليه قائلًا بتلعثم :
- نروح عند النور ده .. يمكن نلاقي حد يرضِى يساعدنا .
رد "بيبو" ضاحكًا : وإحنا لسّه هنروح هناك ، أنا ضهري إتكسر يا عم "حمدي" .. إنت ليه مش بتفكّر تعمل ريجيم؟
أطلق "خالد" زفرة ضيق ثم قال : يظهر مفيش قُدّامنا حل تاني .. لازم نروح هناك .
أعقب كلامه بأن سَندَني ومشينا بمحاذاة الطريق حتَى إقتربنا مِن الضوء فوجدناه بيت صغير .
أجلسوني في بقعة مُظلمة ليست قريبة مِن البيت ثم سأل "بيبو" بإهتمام :
- خلاص وَصلنا .. هنعمل إيه بقى ؟ .
أَخَذَ "خالد" ينظر للمكان بعيون خبيرة وقبل أن يتكلم وجدنا سيّارة نصف نقل بيضاء تقف بقوّة أمام باب البيت مُثيرة عاصفة مِن التراب ، نَزَلَ منها ثلاثة أفراد يرتدوا جلابيب ..مُلثمين الوجوه وبِيَدْ كلٍ منهم سِلاح ناري ، تركوا أحدهم بجوار السيّارة في حين إقتحما الإثنان المنزل مُهددين أهلهِ بالقتل مع أوّل بادرة مُقاومة ، ثم شرعوا في الإستيلاء على كل ما تقع أيديهم عليه .

مع إرتفاع صوت بكاء الأطفال بالمنزل وتوسلات أهله للصوص بأن يكتفوا بالسرقة فقط دون إيذاء أحد مِن أهل الدار ، غمغم "خالد" بغضب:

- إيه البلطجة دي ؟ ، إزّاي هجّامة يتجرّأوا ويعملوا كده ؟ ، هو في إيه بيحصل في البلد ؟ .

في اللحظة التي توقّعت فيها أن يستيقظ الشرطي بداخله ويهبّ لنجدة الناس ، وجدته يقول لـ "بيبو" وهو يُشير على سيّارة اللصوص : تعرف تسوق العربيّة دي ؟ .

رد "بيبو" بسخرية : والله السؤال ده إهانة كبيرة .

هز "خالد" رأسهُ وهو يُكمل : أنا هتعامل مع الواد إللّي واقف جنبها وإنت تاخدها .

وقبل أن ينتظر موافقته ، هبّ مُتجهًا حيث الرجل الواقف في حالة إسترخاء وثقة بأن العمليّة محسومة ، لذا كان وقْعُ المفاجأة قاسيًا عليه عندما وَجَدَ "خالد" يُهاجمهُ مِن الخلف ويُكيل له لكمة فنيّة على مؤخرة رأسَهُ أفقدته وعيهِ في الحال .

في الوقت الذي إحتل فيهِ "بيبو" مقعد القيادة باحثًا عن المفتاح وعندما لم يجده هز رأسَهُ ساخرًا :

- ليه كده يا جدعان ، مِش كان واجب تسيبوا المفتاح مكانه .. لازم تتعبونا يعني ! .

وبمهارة مُحترف إنتزع سِلكين أسفل مُقوَد القيادة ، قام بتوصيلهما فدارت السيّارة ، قفز "خالد" في مؤخرتها وإندفع "بيبو" بإتجاهي ، هَبَطَ الإثنان وتعاونا في حملى ووضعي في الصندوق الخلفي ثم قفَزَ "خالد" بجواري وإنطلق "بيبو" بسرعة وهو يُطلق ضحكات عالية قائلًا :

- أموت وأشوف شكْل الحراميّة ، لمّا يطلعوا مِن البيت ومعاهم الغنايم .. يلاقوا عربيّتهم إتسرقت.

بالرغم مِن ظنّي أن وجه "خالد" مُتجمّد القسمات ، إلّا أنني وياللعجب لمحتهُ يبتسم لخفّة ظِل "بيبو" ، لحظات وعاد أكثر تجهمًا عبوسًا ، كأنهُ يلوم نفسه على إبتسامته .
"خالد الشناوي" .. لم أقابل طوال عمري شخص أكثر مِنه غموضًا ، لُغز في هيئة شاب تخطّى الثلاثون بعامين أو ثلاثة على أكثر تقدير ، أسمر البشرة ، كث الشارب ذو جبهة عريضة تنم على الذكاء ، عيون سوداء تشع قوة وحيوية أعلاهما حاجبان كثيفان وشعر أسود مُجعّد قصير .
"خالد" يُعتبَر حالة فريدة مِن نوعها ، تواجَد معنا في عنبر سبعة منذ حوالي عام ، اليوم الأوّل لدخولهِ الزنزانة أوْصلهُ نائب المأمور شخصيًا، دخل معهُ صائحًا في المساجين وبالأخص "طلبة" ، أن مَن سيفكر في التعرّض له فعليهِ إعتبار نفسهُ في عِداد الأموات .
حاول الكثيرون معرفة مَن هذا النزيل الجديد وكل ما توصّلوا إليهِ بعد عناء أن إسمهُ "خالد الشناوي" وأنهُ ضابط سابق محكوم عليهِ بالسجن عشر سنوات لإتهامه بجريمة قتل ، لم يتمكن أحد مِن معرفة أي تفاصيل عن جريمته أو كيفية حدوثها أو أيّ شيء آخر .
حافظَ "خالد" على صمتهِ وهدوئهِ وكان نادرًا ما يتحدّث مع أحد وفي أضيق الحدود ، أتذكّر ذات يوم أن نشبت مُشاجرة في المطعم أثناء تناول العشاء ، بالرغم أنهُ لم يكن أحد أطراف الشِجار ، لكن أحدهم قام بلكمهِ في وجههِ على سبيل الخطأ وسارع بالإعتذار له على الفور ، هنا عرفنا أن صفة التسامح ليست مِن صفاتهِ ، فقد قابل إعتذاره بعدّة لكمات قوية أصابت جميعها وجه الرجل وغطّته بالدماء ، ثم جلس يستكمل طعامهُ وكأنّ شيء لم يكن .
شعرتُ وقتها بنفس ما شعر بهِ كل مَن شاهد الموقف ، وهو أن "خالد" لا تعود قوّته لمهنتهُ السابقة أو حماية الحَرَسْ له ، إنما هو شديد الشَبَهْ بأفعى "الأناكوندا" الشهيرة بأنها أقوى أفعى على الأرض ، فهى لا

تحتاج سم بين أسنانها ، إنما تلتف حول الفريسة بعضلاتها القوية ، تعتصرها .. تحطّم ضلوعها ، لتكون سهلة البلع فيما بَعْدْ .
الآن أنا أرقد على ظهري في صندوق سيارة نصف نقل يقودها ثعبان سام وإلى جواري يجلس ثعبان آخر مفتول العضلات ، كلاهما حريص كل الحِرص على حياتي ، ليس عن حُب أبدًا ، إنما عن رغبة شرهة في الإستيلاء على أموالي ، معتقدين أني رجل عجوز سهل المَنال ، متغافلين أن عدد سنوات عُمري تساوي مجموع عمرهما معًا ، وأني أيضًا الشريف الوحيد هنا ، فأنا لم أقتل مثل "خالد" ولم أسرق كما فعل "بيبو" ، إنما إستريدت ما سُرِقَ مِن مالي ، هذا المال الذي يُظنان أن بإستطاعتهما وضع أيديهما السّامة عليهِ ببساطة ، لكني دفعت ثَمَنْ إستعادتهُ مِن إسمي وسُمعتي وأسرتي وكل حياتي ، ولم يتبق لي سِواه ، لذا سأُحافظ عليهِ بكل ما أوتِيت مِن قوة ، وإن إضطررت أن أواجه أقذر أنواع البَشَر أو أن أعيش في .. جُحر الأفاعي .

_ ٣ _

أنقذني مِن سيْل أفكاري صوت "خالد" وهو يقول : عامل إيه دلوقت يا "حمدي" ؟ .
هذا اللعين له نصف سنوات عُمري وينادِيني بإسمي مُجرّدًا دون ألقاب ، وأنا الذي كنت مدرسًا في الجامعة ومستشار فني لوزير الزراعة .
لم تكن لديّ رغبة في تعليمهِ آداب الحديث خاصةً وأنا في هذه الظروف، لذا أجبتهُ ببرود :
- حاسس إنّي تَعبان قوي ، رجلي اليمين وارمة وبتوجعني .
تفحّصها بعينهِ دون أن يعتدل في جلسته ، ثم قال بلامبالاة : شكلها إتكسرت .
- يعني كده هنحتاج نروح لدكتور ، صحيح .. هو إحنا رايحين فين ؟ ، "بيبو" سايق بنا مِن نُص ساعة مِن غير ما يقول واخدنا فين ؟ .
كأنّما ذكّرتهُ بشيءٍ لم ينتبه إليهِ ، إعتدل في جلسته وقرّب وجهه مِن نافذة "بيبو" صائحًا :
- إحنا رايحين فين يابني ؟ .
رد "بيبو" بروحهِ المرحة : هفسّحكوا شويّة في دريم بارك .
لم ترق دعابتهُ لـ "خالد" الذي عَقَدَ حاجبيهِ بغضب ، ثم قام قابضًا بيده اليمنَى على أعلى كابينة القيادة ، ويدهُ اليُسرى أمسك بها جانب صندوق السيّارة ، وبحركة رشيقة مال بجسدهِ للأمام فأصبح وجههُ قريب مِن "بيبو" قبل أن يصيح قائلا :
- هُوّ إنتَ هتصاحبني يا إبن المره "....." ، لمّا أسألك على حاجة .. يبقى تُردّ عِدِلْ .
ربما لو كان "خالد" موجود في السجن وقت أن أبرز "بيبو" أنيابه وأحرق رجلًا أهانهُ ، لتردد كثيرًا قبل إرتكاب هذه الحماقة التي لم

يستسيغها "بيبو" ، الذي رد عليه بطريقة عمليّة ، إذ ضغط بغتّة مكابح السيّارة ، ولولا أني كنت راقدًا على ظهرى لإنقلبت على وجهي ، وأعتقد أن لولا عضلات "خالد" القوية لكان مكانه أسفل السيّارة أو على الأقل مُلقى خارجها ، وبصوت ساخر قال "بيبو" بطريقة تحمل الكثير مِن التهديد :

- المره "....." دي تبقى أمّك ، إسمع بقى مِنّي الخلاصة .. إحنا يا "خالد" في شُغل ، بنقضي مصلحة يعني مِن الآخر ، بعد كدة كل واحد يرُوح لحال سبيلُه ، وإنت محتاجني في المصلحة زيّ ما أنا محتاج لك ، يبقى لا تِقِلْ مِنّي ولا أَقِلْ مِنك .

وصَمَتَ لحظة ثم إستطرد ضاحكًا :

- أنا لو كنت زوّدت الفرامِل شويّة كان زمانك ميّت ، بَس عشان كَرَمْ أخلاقي .. سايبك تعيش .

ثم بدأ يتحرّك بعد أن ألقى رسالته ، إعتدَلَ "خالد" ثم تلفت حولِهِ ليجد حبل قصير مُلقى في صندوق السيّارة ، بهدوء دون ضجيج إلتقطهُ وربطهُ على شكل عُقدة ، وبسرعة مال بجسده كلّه أعلى الكابينة ممسكًا صندوق السيّارة بيُسراهُ فقط ، أمّا يدهُ يُمناه فكانت تُعلّق العُقدة بمهارة في رقبة "بيبو" الذي حاول أن يضغط المكابح بقوة كما فَعَلَ سابقًا ، لكن سُرعة السيّارة لم تكن كبيرة بالتالي لم يستطع إلقاء "خالد" مِن أعلى ، فإضطّر للتوقف وأمسك الحزام بكلتا يديهِ مُحاولًا تحرير رقبته بإستماتة مُطلقًا خوار كثور مذبوح .

بعد لحظات تأكّد "خالد" مِن إنهاكِهِ فخفف ضغط الحزام على رقبته وهو يقول بصرامة :

- إنتَ صح .. إحنا فعلا في مصلحة ، يبقى لا تِقِلْ مِنّي ولا أَقِلْ مِنّك ، بَس برضه لازم تبقى عارف حاجة مُهمّة .. إن إنت لسّه عايش .. عشان أنا مِش عايزك تموت .. فاهم ؟ .

ثم إنتزع الحبل مِن حول رقبته وألقاه بإهمال قبل أن يجلس بجواري لاهثًا .

في الحقيقة أنا لم أحاول التدخّل مُطلقًا في هذا الصِراع الدائر ، لأني كنت في غاية السعادة بِخلافهم هذا ، وجودي في أمان يعتمد في المقام الأوّل على أن يكونا في وضع صِراع ، لأن في حالة إتفاقهما ، سأكون أنا حتمًا محور الإتفاق ، ينبغي أن تظل حالة الإحتقان هذه لكي يعتدل ميزان القُوَى وأحتفظ بمكاني كرُمّانة الميزان الذي يُحاول كلاهما التقرّب إليه .

أَخَذَ "بيبو" يُدلّك رقبته وهو يلهث بشدّة ، لكنه سرعان ما إستعاد روحه المرحة قائلا :

- كده برضه .. تخربشني في رقبتي كده .. الله يسامحك ، ماشي.. كده كل واحد عَرَفْ تمامه .

هز "خالد" رأسه إيجابًا ببرود ثم طلب منه سيجارة ،أخرج علبتهُ وأعطاه واحدة ، فسألته بإهتمام:

- إحنا رايحين فين يا "بيبو" ؟ .

رد بإقتضاب : رايحين لجماعة أصحابي في "البدرشين" عشان نِسلّك العربية ونغيّر هدومنا .

ثم أشار على قدمِي المُتورّمة مُستطردًا :

- ونشوف لك دكتور عشان بخبرتي الكبيرة في مجال الطب ، أقدر أقول إن رجلك إتكسرت .

وافقته بإبتسامة وتابعته وهو يُشعل سيجارته عائدًا إلى مقعد القيادة ، إنطلق بالسيّارة بسرعة متوسّطة وسط طُرُقْ فرعيّة مُتفاديًا بمهارة تُثير الإعجاب أن يُسلك أيّ طريق رئيسي .

كأن "خالد" قَرَاَ أفكاري فوجّدته يقول : طبيعي إن حرامي عربيّات قراري زيّ ده ، يقدر يوصل أيّ مكان مِن غير ما يقرّب مِن الطُرُقْ الرئيسيّة .. عشان اللِجان .

على الرغم أن صوت "خالد" لم يكن عاليًا لكن "بيبو" رد بضحكة ساخرة عالية :

- طريق فرعي ..طريق رئيسي ، ما تفرقش يا باشا ، أهو كل الطُرُقْ تؤدّى إلى "البدرشين" .

إبتسمت مُندهشًا مِن حاسة السمع القويّة التي يتمتّع بها .. كالأفاعي ، عجيب جدًا "بيبو" هذا ، داخله متناقضات عديدة ، أولها مثلًا .. .

- هو القناص إللّي كان في السجن ده .. كان عايز يقتلك ليه ؟ .

هكذا إنتزعني "خالد" مِن خواطري بسؤال ألقاه بطريقة ضُبّاط المباحث. سرحت لحظات مُتذكّرًا الطلقتين الغادرتين التي إستقرتا في ظهر اللواء "البدران" :

- الراجل إللّي كان عايز يقتلني هوّ إللّي قتل مدير السجن ، وأنا شُفتُه وهوّ بيقتله .

إعتدل "خالد" في جلسته ثم قال : الراجل ده إنت لو شُفته .. تقدر تتعرّف عليه .

- طبعًا .. ده ملامحه إتحفرت جُوّايا .

صاح "بيبو" مُخاطبًا "خالد" :

- كده تمام قوي يا باشا ، باقي بَس تسأله .. هل لديك أقوال أخرى ، بعد كده نقفّل المحضر .

لم يستطِع "خالد" إخفاء نظرة الغضب التي لاحت في عينيه ، هذا الماكر يُذكرهُ أنه خارج جهاز الداخلية ، لكن غضبه لم يظهر على صوته وهو يقول :

- المشكلة مِش إنك تقدر تتعرف عليه ، المُشكلة في إنه عَرَفك ، وعارف إنك شاهد إثبات عليه .

لديه حق ملابس القاتل تدل أنه لم يكُن أحد نزلاء السِجن وأيضًا ليس أحد حُرّاسه ،تُرى مَن يكون؟

إنحرف "بيبو" بالسيّارة في طريق ضّيّق جدًا ، على يمينهِ ترعة صغيرة، على اليسار أرض مزروعة قَصَب سكر تتدلى أغصانه علينا مِن شِدّة ضِيق الطريق ، بعد دقائق مِن السير ، وَجدنا رجل ضخم يقف في منتصف الطريق وبيدهِ سلاح ناري .

لم يبد على "بيبو" أيّ إكتراث وهوَ يُطفئ أنوار السيّارة العالية وإقترب حتى صار على بُعد خطوات قليلة ، توقف بالسيّارة ثم نَزَل منها فاتحًا ذراعيه وهو يصيح مازحًا :

- "الدُش" أهو .. "الدُش" يعني أكبر مِن الدَبَش .. والدُرجي كمان.

ظهرت ملامح السعادةعلى المدعو "الدُش" ثم قال بصوت أقرب للصراخ : "بيبووووووو" .

ثم دخلا في عِناق حار قبل أن يأخذه "بيبو" مِن يده ويقوم بعمل تعارف سريع مُبينًا أن "الدُش" هو صديقه الصدوق الذي خَرَج به مِن الدنيا ، ثم وَجّهَ حديثه إليه :

- هو إيه إللّي بيحصل يا "دُش" ، السجن كله هرب ومفيش حد قال لنا رايحين فين ، وكمان لقيت شِويّة عيال حراميّة شكلهم جُداد في الكار بيسرقوا بيت ، برضة ماحدّش سأل بتعملوا إيه؟.

صمت لحظة ثم أردف ضاحكًا : هوّ النهاردة اليوم العالمي للسرقة ولا إيه ؟ .

ضحك "الدُش" وهو يجيبه : لا ده بيقولوا في ثورة في البلد والأقسام إتحرقت ، والسجون إتفتحت ، والدنيا آخر مليَطَة ، ده حتى المعلم أَخَذْ الرجالة ونزلوا يُحطّوا على توكيل "مرسيدس".

"ده حتى المعلم أَخَذْ الرجالة" .. إذن هذا "الدُش" ليس المعلم هنا ، لكن ما هذا .. "ثورة" ! ، أيّ ثورة حدثت ومتى ؟ .

نظرتُ ناحية "خالد" فوجدت وجهه صلبًا ،لكن إنعقاد حاجبيهِ يشي أن عقله يعمل بأقصى طاقته.

ضحك "بيبو" قائلا لصديقه : طيّب تعالى نطلع ع البيت عشان تظبّطنا، يادوب الواحد يلحق يقلّب توكيل "هيونداي" أو حتى توكيل "لادا" قبل ما الحكومة ترجع .

رَكَبَ "الدُش" بجوار "بيبو" وإندمجا في حديث تبيّن منه أن إحتجاجات محدودة حدثت منذ يومين ، أعقبَها ثورة عارمة إجتاحت البلاد ، وأن

الجيش نَزَلَ يُؤمّن المنشآت الحيَويّة ، رَغم ذلك تم مُهاجمة عدد كبير مِن المولات والفنادق والبنوك ، وإختلط الحابل بالنابل .
وَصلنا أسفل بيت مِن ثلاثة طوابق وسط الأرض الزراعيّة ، في الحال أتى شخصين يبدو أنهما أشقاء "الدُش" ، تعاونوا في حملى وإدخالي ، دقائق ووجدت نفسي في حمّام المنزل حيث أتى شخص ساعدني في الإستحمام وتغيير ملابسي بأخرى نظيفة .
خرجت مِن الحمّام فوجدت "خالد" و"بيبو" مُرتديين ملابس جديدة ومُلتفّين حول مائدة الطعام .
أكلنا بنهم ، وما أن إنتهينا حتى أتى رجل عرّفوني بهِ على أنه طبيب عظام ، فحصني بسرعة قبل أن يهزّ رأسه وهو يكتب روشتة قائلًا لـ "الدُش" : رجله مكسورة .. إبعت هات الدوا ده .
أخذ "الدُش" منه الورقة وبعد دقائق عاد ومعهُ أدوات الجبس التي شَرَعَ الطبيب في إستخدامها دون أن ينطق بكلمة .. لكن عفوًا إنها قدمي التي تعبثون بها ، لذا تجرّأت قائلًا :
- معلش يا دكتور .. هوّ مِش المفروض تعمل أشعة الأوّل قبل ما تجبّس .

نظر لي بدهشة ثم مال ناحيتي قائلًا ببرود :
- مِش عايزك تقلق .. أنا عالجت ناس هِنا مِش مكسورين زيّك كده ،لأ ..مضروبين بالنار كمان .

هززت رأسي بعدم إقتناع ، مما جعلهُ يستطرد بنفْس بروده :
- لو عايز تعمل أشعة .. إتفضّل ، بَس هتقول لهم إيه ؟! ، رجلي إتكسرت وأنا بهرب مِن السجن.

إنتهى الطبيب مِن عملهِ وإنصرف ، فأتى "خالد" يجلس بجواري قائلا :
- الدكتور عنده حق .. إحنا ماينفعش نروح أي مستشفى .
- برضه ماينفعش نجبّس رجلي عمياني ،أنا خايف يحصل لي حاجة ، أنا عندي السكر والضغط.

هزّ "خالد" كتفيهِ بلامبالاة ، عاد "بيبو" قائلا : الدكتور بيقول الجبس ده هيفضل في رجلك شهر.
عقدتّ حاجبيّ بسخط ولم أرد ، فإستطرد "بيبو" بإبتسامة :
- أظن كده تمام يا عم "حمدي" ، ها .. الفلوس فين بقى عشان نروح نجيبها ؟ .
إبتسمت بلطف قائلا : معقول يا "بيبو" ، نروح نجيب الفلوس وتاخد حقك بعد كده تسيبني زيّ الكلب إللّي رجله مكسورة في الشارع ، طيّب هتنفعني بإيه الفلوس ساعتها .
رد "بيبو" بترقّب : يعني المفروض نعمل إيه ؟ .
- تاني يوم ما نُفكّ الجِبسْ .. نروح نجيبها على طول .
إرتدّ "بيبو" في جلسته عاقدًا حاجبيهِ مفكرًا ثم قال بخبث : ومالـه يا عم "حمدي" .. إنت ضيفي الشهر ده لحد ما تقوم بالسلامة .
سحق "خالد" سيجارته تحت قدمهِ قائلا :إحنا الإتنين ضيوفك يا "بيبو".. هوّ إنتَ بخيل ولا إيه ؟
رد "بيبو" بمكر : طيّب أنا هصرف عليه عشان جاي مصلحة منه ،إنتَ بقى ..أصرف عليك ليه؟
رد بإقتضاب : إسأل "حمدي" كده ، هو عايزني ولا لأ ؟ .
ذكي جدًا "خالد" هذا ، هوَ يعلم أني لا أثق في "بيبو" ، يبدو أنه إستنتج ضرورة وجوده لعمل توازن قُوَى ، فألقَى الكرة في ملعبي ، لذا رددت بإقتناع كامل :
- بُص يا "بيبو" يابني .. أيّ جنيه هتصرفه .. إكتبه،الخير كتير وهتاخد حقّك ومصاريفك بزيادة.
ضحك "بيبو" قائلا بدهاء : يعني هيّ كده يا عم "حمدي" .. ماشي .
هززت رأسي مُشجعًا ثم سألته :هوّ إحنا هنقعد هِنا عند "الدُش" ؟ .
- لأ .. هنروح "باب الشعريّة" .
سأله "خالد" بترقّب :عندك مكان أمان كويّس في "باب الشعرية" ؟ .

رد "بيبو" بضحكة طويلة : إلّا أمان ، ده إحنا رايحين عند الأمان كُلـه ، عند الحب كُله .
ثم أطلق زفرة كادت حرارتها تحرقنا مُستطردًا بهيام :
- إحنا رايحين عند كاملة الأوصاف ، رايحين عند .. "سوكا" .

_ ٤ _

خرجنا مِن المنزل فوجدنا سيّارة لانسر في إنتظارنا ، أعطى "الدُش" مفتاحها لـ "بيبو" ثم أخرج رزمة ماليّة وَضَعها في جيبِهِ قائلًا :

- النهاردة الإتصالات مقطوعة ، بَس أكيد هترجع تاني ، أوّل ما الدنيا تِهدَى ، كلمني على طول.

ثم مال عليهِ واضعًا في يدهِ فَرْدْ خرطوش مُستطردًا : خَلّي ده معاك .. يمكن تِحتاجه .

إبتسم "بيبو"إبتسامة غامضة وهو يقول : مِش يمكن .. ده أكيد هحتاجه .

ثم عانقه عناق أخير قائلًا بطريقتهُ المرحة : ما أتحرمش العُمر مِن عطفك عليّ .

وَضَعَ "بيبو" السِلاح في جانبه ثم إحتلّ مِقعد القيادة ، صافحنا "الدُش" بإحترام وجلست أنا في المقعد الخلفي مُضطجعًا ، في حين جَلَسَ "خالد" في المقعد الأمامي وهوَ يرمق السِلاح في خِصره ، بالطبع لم يرُقْ له حيازة "بيبو" لسلاح ناري ، لأن هذا يُمثّل تفوّقًا إستراتيجيًا عليه ، لكنه إلتزم الصمت فما باليد حيلة .. كذلك فعلت أنا ، بينما إندمج "بيبو" طول الطريق في الدندنة بأغنية "كامل الأوصاف" التي يحفظها عن ظهر قلب.. " العيون السود رموشهم ليل ، ليل بيحلم باللّي غايب ، العيون السود .. خدوني ، آه يا قلبي ياللّي دايب " في النهاية يقوم بتشويه الأغنيّة عن عمد مُدندنًا .. " علموك تسهر تحشش .. علموك شُربْ السجاير " .

بعد أكثر مِن ساعة وقبل الفجر بدقائق وصلنا عِند مسجد "الشعراني" بحي "باب الشعريّة" ، بعد ما مرّ "بيبو" بِنا وسط حواري وأزقّة لم أرها مِن قبل .

خلف المسجد وفي منطقة تتشابك فيها رؤوس الحواري ، ألقى السيّارة وهبطت مُتكئًا على ساعديهما ، فوجئنا بمجموعة شباب تتجه نحونا ، يبدوا أنهم شكّلوا لجان شعبيّة .
في الحال خاطبني "بيبو" بصوت مُرتفع : بالراحة يا عم "حمدي" عشان رِجلك ،مِنهم لله الظَلَمة.
إقتربت مِنّا المجموعة وفي عيونهم نظرة تساؤل وعدوانيّة ، قبل أن ينطق أحدهم بحرف ، سارع "بيبو" يُخاطبهم كأنّه يعرفهم : ربّنا ينتقم منهم .. كسروا رجل عَمّي ولاد الكلب .
سأل أحدهم : هوّ الحاج إتصاب في المُظاهرات ؟ .
رد "بيبو بمنتهَى الحماس : أيوة .. إحنا لِسّه راجعين مِن ميدان التحرير، البلد كلها معتصمة هناك ، الشعب فاق يا جدعان ، الشعب أخيرًا صحَى مِن النوم .
كان يتحدّث بحماس مُتناهي لدرجة شعرت معها أنه سوف يقودهم للميدان هاتفًا .. "الشعب يُريد إسقاط النِظام" ، وقد نَجَحَ بالفعل في إكتساب ثقة بعضَهم لكن أحدهم سألَ بِغتّة :
- بَس إحنا لامؤاخذة ما نعرفش إنتَ مين ، ولا جاي هِنا تِعمل إيه؟ .
أجابَ بثقة : إحنا قرايب عم "صلاح أبو الدهب" .. الجرّاح المشهور .
فورًا عَلَتْ الإبتسامة وجوههم وهم يفسحوا الطريق مُرحبين ومُرسلين معنا التحيّة لقريبِهِ الجرّاح ، إتكأت على ساعد "بيبو" وهوَ يسلكُ بنا طريقًا في أحد الحواري ، همست في أُذنِه :
- كِويّس إن لك قريب جَرّاح ، تبقَى تخلّيه يشوف رجلي عشان يطمنني .
رد ضاحكًا : لا يا عم "حمدي" ، قريبي مِش دكتور .. ده حلّاق ، بَس أَخَذْ لقب الجَرّاح عشان ساعات بيعوّر الزبون أثناء الحِلاقة ، يقوم واخده غُرزتين على طول قبل الجرح ما يتلوّث .

صَدَمني هذا الرد فإلتزمت الصمت ، لحظات ووقفَ "بيبو" أمام بيت مُكوّن مِن طابقين ، ثم أخرج سِلك معدني مِن جيبِهِ ، عالج بهِ الباب قبل أن ندخل ويُغلقهُ خلفنا ، صعدت إلى الطابق الأوّل بصعوبة ، فسأل "خالد" بإهتمام : "بيبو" .. هوّ إحنا رايحين عند واحدة تِعرفها ولا رايحين عند قريبَك ؟ .

نَظَرَ له "بيبو" مُتصنّعًا الدهشة :

- ياااه ، الحمد لله يا باشا ، أخيرًا سمعت صوتك ، إنت فين مِن بدري ؟ ! .

ثم دقّ جرس الباب ، لم يأتِ رد في البداية ، لكن بعدما دقّ مرة ثانية، سمعنا صوت أنثوي يسأل :

- مين إللّي بَرّة ؟ .

لَفَتَ إنتباهي أن مَن ألقت السُؤال لم يبدو أيّ خوف على صوتها ، لكنها تسأل كأنها تتوعّد مَن بالخارج ، أجابها "بيبو" بشجن : أنا "بيبو" يا "سوكا" .. آه يا قلبي ياللّي دايب .

جاوبته شهقة عالية مع صوت مُختلج : "بيبو" ؟ .

ثم فتحت الباب بحذر ، لأكتشف أن "بيبو" لم يكن مُخطئًا حين قدّمها لنا على أنها كاملة الأوصاف ، فقد ظهرت أمامنا فتاة عشرينيّة خمريّة البشرة ، عيناها سوداوان واسعتان أعلاهما رموش حادة ، تقبع تحت شعر أسود طويل ، أنف صغير مُدبب ، فم دقيق ، ملامح مُتناسقة ، علاوة على جسد رياضي ممشوق لا يحتاج ملابسها الضيّقة التي ترتديها لإظهار مفاتنه .

قفزت نحو "بيبو" برشاقة بمجرّد رؤيته وتلقّفها هو بخفة ، ودون أدنى قدْر مِن الحياء أو الإحترام لوجودي ، إنهالا على بعضهما بسيلٍ مِن القُبُلات .

- ما تِهدوا شِويّة يا جماعة .

هكذا قال "خالد" لإيقاظهما مِن هذه اللحظة الحالمة ، إنتزعت "سوكا" شفتيها مِن فم "بيبو" :

- ونِهدَى ليه يا خويا ؟ .
رد "خالد" ببرود : قصدي يعني ماينفعش الكلام ده على السّلّم .
نظرت له "سوكا" بدهشة ثم عادت بوجهها لـ "بيبو" قائلة :
- وهى تحلَى غير على السلّم .. فاكر بير السلّم في البيت القديم يا "بيبو" ؟ .
- إلا فاكر .. وأنا معقول أنسى أوّل حِتّة قلبي دق فيها .
وافقته بإيماءة مِن رأسها وهى تدعونا للدخول ثم دخلت الشقة وأغلقت بابها :
- فعلًا يا "بيبو" .. قلبك كان بيدق جامد ساعتها .
جلستُ على أحد مقاعد الصالون وجَلَسَ "خالد" بجواري ، في حين جَلَسَ "بيبو" على أريكة عريضة أمامي ، بالرغم مِن إتساع الأريكة لكن "سوكا" تركتها ولم تنتقي لنفسها مَجلسًا سِوى رِجل "بيبو" مُتّخذه مِن كتفهِ مسندًا وهى تنظر في عينيهِ قائلة بصوت يقطر شوقًا :
- وحشتني قوي يا "بيبو" .
جاوبها وهوَ يتحسس شعرها الطويل : الشوق .. آه مِ الشوق .
حاولتُ أن أُذكّرهما بوجودي ، فسعلتُ مُخاطبًا "سوكا" :
- معلش بقى يا مدام "سوكا" عشان طبّينا عليكي الفجر كده .
إلتفتت كأنها فوجئت بي ثم قالت : مَدام إيه .. آنسة لو سمحت .
آنسة !! .. ، كيف آنسة ؟! ، لم أنتبِه أنها تُداعبني إلا عندما أطلقت ضحكة عابثة طويلة قبل أن تشير علينا بتساؤل ، فنَظَرَ "بيبو" إلى "خالد" ثم عاد بعينِيهِ ناحيتى وهوَ يُشير لها قائلًا :
- ده يا روحي إسمه عم "حمدي" ، أنا وَصلت السجن لقيته موجود ، راجل تمام قوي وبيصرف كِويّس ، ده كان بيجيب أكل على حِسابه مِن برّه السجن يا "سوكا" .
رمَقتني بنظرة إحترام قبل أن يستطرد :

- أنا سمعت إنه دخل السجن في قضيّة سرقة وتبديد مال عام وحاجات كتير ، لمّا جيت أهرب إتحايل عليّ عشان أساعده قُصاد إني آخد مِنّه خمسة مليون جنيه .

بَرَقَتْ عيناها بِشدّة عندما سمعت الرقم ، لكنها مطّت شفتيها بلا مبالاة : شِويّة يا "بيبو" .

ثم أشارت إلى "خالد" مُتسائلة ، نظر "بيبو" إليهِ نظرة بها لمحة تهكّم قبل أن يقول : واحد معاه .

عاد "خالد" بظهرهِ إلى الخلف ، ثم وَضَعَ ساقًا فوق أخرى قائلًا بثقة :

- صَح يا "سوكا" ، أنا واحد معاه ، بَس الواحد ده هياخد سبعة مليون ونُص .. ويمكن أكتر .

تدخلت في الحديث قبل أن يأخذ "بيبو" دورهُ في الرد : أنا تَعبَان قوي يا "بيبو" .. هوَ أنا و "خالد" هننام فين ؟ .

أشارت "سوكا" على غرفة مُجاورة لحجرة نومِها قائلة :

- الأوضة الجميلة دي يا عم "حمدي" فيها سريرين صغيّرين ومكتب مِحندَق ودولاب ، يعني آخر جمال وحلاوة ، معلش إنتوا هتقضّوها كده أيّ حاجة الليلة دي ، وأنا بُكرة الصبح أروّقها .

هبّ "خالد" مِن جلستِهِ وإصطحَبني للغرفة ، لم تهتم "سوكا" بمتابعتنا أو "بيبو" الذي نَظَرَ لها :

- "سوكا" .. إوعِى تقولي السّخّان بايظ .

رَمَقته بنظرة عابثة : حتى لو بايظ .. نِسَخّن الميّة سَوى يا بيبي .

ردّ بضحكة عاليّة وإتجهَ إلى الحمّام ثم لحقت بهِ .

دخلنا الغرفة وألقاني "خالد" على السِرير ، قبل أن يجلس لَمَحَ في الغرفة جهاز تِلفاز ، أدارهُ على الفور وأَخَذَ يبحث عن أيّ أخبار في القنوات المصريّة التي كانت تتناول الوَضْع على إستحياء ، في حين كانت القنوات الأجنبيّة تُذيع أرقام عن أعداد الشهداء والمُصابين

مدعومة بُصوَر حرائق في مناطق مُختلفة ، مما جعلني أُطلق زفرة مُلتهبة قائلًا : يا نهار إسوِد .. ده البلد ولّعت .
جَلَسَ "خالد عاقدًا حاجبيهِ ثم قال مُتهكمًا وهو يُشير نحو صوت آهات "سوكا" المُنبعثة مِن الحمّام
- مِش البلد بَس إللّي ولّعت .. الحَمّام كمان ولّع .
طبيعي على شاب في عُمْرْ "خالد" أن تُثيره "سوكا" بأنوثتها وفِتنتها الطاغيّة ، لكني أعلم مَدى ذكائهِ ، فبالطبْع لاحظ أنها ليست مُجرّد فتاة عاديّة ، مَن تستطع أن تجعل ثُعبان سام مِثل "بيبو" يُحبّها لهذهِ الدرجة ، فهى بالضرورة مِن نفْسْ الفصيلة .
بَرهَنت "سوكا" نفسها على صِحّة إستنتاجي ، بعد حوالي ساعة خَرَجَت مِن الحّمام وكان "خالد" قد أغلَق التِلفاز مُتمتمًا بكلمات غير مَفهومة ثم إستلقى على سريرهِ ونام .. أو إدّعى أنه نائم .
خَرَجَت "سوكا" وإطمئنّت على أننا نائمين ، ثم قامت بتحضير بعض الطعام ، أخذتهُ معها لغرفة النوم حيث كان "بيبو" سَبَقها هناك .
توقعت أن يتناولا طعامهما بِنهَم خاصةً بعد المجهود المبذول ، لكن يبدو أن رغبة "بيبو" فيها فاقت رغبتهُ في الطعام ،فلم تمضِ لحظات حتى رنّت إحدى ضحكاتها ثم عادت آهاتِها مِن جديد.
بعد فترة ليست بالقصيرة ساد الصَمْتْ ، ثم سمعت صوتها وهى تقول :
- "بيبو" .. أن مِش مِستريّحة للحوار بتاع عم "حمدي" ده .
أرهفت أُذُنِى جدًا وبالكاد سمعتُ فحيحهُ :
- ماتقلقيش يا "سوكا" .. أنا عارف أعمل إيه.. وإمتى .. وإزّاي ، ماتقلقيش .
- إسمها نِعمل .. مِش أعمل ، هوّ معقول إسيبك في حوار كبير زيّ ده لوحدك يا بيبي ! .
أطلق ضحكة ماكرة قصيرة وهوّ يقول :
- آه يا قلبي يااللّي دايب .

سمعت حوارهما بأذنيّ ، ولم أُصْدَمْ مما سمعته .. فقد كنت أتوَقّعه ، فمِن الطبيعي جدًا أن يفكر "بيبو" بهذه الطريقة .. كذلك وليفته ، لأنهما في الحقيقة زوج مُتفاهم ومُتناسق تمامًا .
صَدَق مَن قال أن الطيور على أشكالها تقع ، لكنهُ أغفل أن يُضيف .. والأفاعي أيضًا .

الفصل الثانى

_ ١ _

اليوم أتمّت ساقي شهرًا كاملًا في هذا الجبس السخيف ، ذلك يعني مكوثي ثلاثين يومًا في بيت "سوكا" أو جحر الأفاعي .. ولازلت حيًا .
لم يختلف كثيرًا الشهر الماضي عن السنوات التي سَبقته ، في الحالتين أنا مسجون ، ربما السجن كان أكثر عدلا ، فقد كنا جميعًا خلف القضبان، أمّا الآن فالجميع يستطيع الخروج ما عدايّ بسبب تلك الإصابة اللعينة ، "بيبو" يَخرج مِن المنزل وقتما يشاء ويعود ليُعطي "سوكا" نقودًا كثيرة .. يبدو أن سرقة السيّارات سهلة مُيَسّرة هذه الأيام ، بينما "خالد" خَرَج ثلاث مرّات ، وفي كل مرّة يعود والتجهّم ظاهرًا عليه ، لم يَصرّح نهائيًا أين ذَهَبَ أو ماذا يُخطط ، أو للدقة لم يَقُلْ أيّ منهم ماذا يجولُ في نفسِه ، ولم يسأل أحدنا الآخر عن ماضِيهِ أبدًا .. كأنما هو إتفاق غير مُعلّن بيننا .
الطعام هنا في مواعيد كما كان في السجن ، أصحو لأجد "سوكا" أعدّت الإفطار في الصالة ، كذلك الغداء ، أمّا العشاء فغالبًا ما نكون كلنا في المنزل ونتناول طعامنا في جو يحرص دائمًا "بيبو" أن يُذكّرنا بفضلِهِ علينا مِن حيث الإيواء والطعام وبَذْخ إنفاقه ، لتعترض "سوكا" موضحة خطأ مُعايرتي بأفضالِهِ لكن لا بأس مِن مُعايرة "خالد" وحده وينبغي عدم الجمع بيننا .
"سوكا" في الواقع دائمًا ما تُثير دهشتي ، أحيانًا أراها ناعمة رقيقة طيّبة وحنون لأبعد مَدى ، وفي لحظات تنقلب إلى فتاة خشنة شريرة عابثة عابسة إلى أقصى حد .

كذلك "خالد" يمكنني التأكيد أن وصفه بغريب الأطوار هو نَعتٌ غير عادل ، "خالد" تخطّى هذه المرحلة ، صامت دائمًا يُراقبنا بإستمرار ، حتى بعد أن عاد ذات يوم وبحوزته هاتف محمول ، أجدهُ لا يستقبل مُكالمات عليه .. أو يُرسل ، لماذا إشتراهُ إذن ؟ ! .
هادئ .. صارم ..حريص على عدم التجاوب مع سخرية "بيبو" التي يفتعلها كلما سنحت فرصة .
لمحتهُ ذات مرّة ينظر لـ "سوكا" نظرة فاحصة في حين كانت هى تغسل بعض الأطباق في المطبخ ، على الرغم أنها كانت تُعطينا ظهرها، لكنها إلتفتت فجأة إليهِ وهو يرمقها ، رمتهُ بنظرة سخرية مَصحوبة بإحدى ضحكاتها العابثة العالية قبل أن تتناول هاتفها وتتصل بـ "بيبو" لتقول أيّ كلام .. لكن الرسالة وَصَلت ، لا تفكر أبدًا في ما ستعجز عن إقتنائه .
لم يعد "خالد" يرمقها ثانيةً ، أو أصبح أكثر حذرًا ، فلا أعتقد أن شاب في عمرهِ لا تستثيره أنثى صارخة الجمال مثلها .
ذات ليلة قبل أن أخلُد للنوم هَمَسَ "خالد" في أُذني بأنه عرف معلومة تُفيد أنّ هناك مَن يبحث عنّي ، لذا سألتهُ مباشرةً : إشمعنى أنا بالذات ؟، تفتكر الراجل إللّي قتل المأمور له علاقة ؟ .
هزّ رأسَهُ إيجابًا بهدوء ثم قال : الداخليّة عارفة الناس إللّي هربت مِن السجون بالواحد ، لكن مِش كلهم مطلوبين على وجه السرعة ، طالما إنت مطلوب .. يبقى إللّي عايزك حد مُهم .
ثم مَنحني إبتسامة نادرًا ما تُزيّن شفتيه مُستطردًا :
- أنا قُلت أعرّفك بيني وبينك عشان لو "بيبو" عَرَفْ الموضوع ده.. أكيد هيرفع سِعر الإقامة هنا.
لم يُضيف حرفًا واحدًا ، إنما إستلقى في فراشه وراح في سُباتٍ عميق ، غريب أطوار حقًا والأكثر منه غرابةً هو "بيبو" ، شاب مُتناقض بصورة غير عاديّة .

أحيانًا يسمع نشرة الأخبار مُعربًا عن أسفهِ الشديد للإنفلات الذي إستشرى في البلاد ، ثم ينزل مِن البيت ليسرق ، يُصرّح دائمًا عن تعاطفهُ مع الرئيس ، وأوّل ما فعله يوم تنحّيه عن السُلطة أن أشعل سيجارة محشوّة ثم غمَزَ لـ "سوكا" وسَبَقها لغرفة النوم ، لحظات وسمعت صوتهما في قمّة النشوة دون أدنى قدْر مِن الحياء .. كعادتهما .
في الحقيقة "بيبو" و"سوكا" زوج مُتناغم ومُتفاهم جدًا .. دون عقد زواج.
فقد سمعته ذات مرّة يقول لها بصرامة : ماينفعش تروحي المشوار ده لوحدك يا "سوكا" .
ردّت عليهِ بنعومة : إوعى تكون بتغِير عليّ يا "بيبو" ، ما إنت عارف.. "سوكا" بمية راجل .
ظل عاقدًا حاجبيه لتستطرد بنعومة أكثر : بعدين هقول للناس إنتَ بقى تبقى مين ؟ .. عشيقى ! .
ثم أطلقت ضحكة طويلة عابثة قبل أن تُقبّلهُ وتنصرف .
مِن الجيّد أني لم أُضِع هذا الشهر عبثًا ، إنما قضيتَهُ في مراقبتهم ، وأوّل ما لفِت إنتباهي هو الحذر المُتبادل بين "خالد" و"بيبو" ، كلاهما يُراقب الآخر عن كثب ، كلاهما يعمل ألف حساب للآخر دون أن يكترثا بي ، بالرغم مِن أني صاحب الثروة التي يُمنيان أنفسهما بالإستيلاء عليها .
يَظُناني عجوز أبله يثق فيهما .. لكني مُدرك تمامًا ما يُفكران فيه ويُدبّرانه ، أعلم أن الغدر ثِمة مُشتركة بينهما .. فالغدر ثِمة الأفاعي .
ومِن السذاجة الإعتقاد أنهما سيكتفيان بالقسمة في حالة وضع أيديهما على الثروة ، الأرجح أن كل طرف سيحاول التخلص مِن الآخرين والإستيلاء على الغنيمة كلها لنفسه .
- "حمدي" .. "بيبو" جاب الدكتور عشان يفُك لك الجبس .
هكذا قال "خالد" بجفاء ، هززت رأسي قائلا : يارب يطلع دكتور بجد.. مِش زيّ إللّي جبّسهالي .

لحظات ودَخَلَ رجل تدل هيئتهُ أنهُ عامل نظافة أو مُساعد طبيب على الأكثر ، حتمًا "بيبو" أتى بأسوأ أطباء المنطقة وأقلهم أجرًا ، ثم يكتب في كشف المصروفات أضعاف ما دَفَع .
بهدوء أمسك الطبيب قدمي ثم أخذَ يُثنيها ويفردها .. لا أدري لماذا ؟ ، بعد ذلك أحضر أدواته وبمساعدة "بيبو" أخذَ يُكسّر الجبس حتى إنتهى تمامًا .
طلَبَ منى محاولة الوقوف فإستطعت بصعوبة مع توضيح شعورى بألم، لترد "سوكا" بثقة :

- عادي يا عم "حمدي" ما هى لازم توجعك .. مِش كانت مكسورة .

وافقها الطبيب بإيماءة مِن رأسه فقال "بيبو" مُداعبًا :

- يا سلام يا قلب قلبي ، عارفة كل حاجة .. دكتورة ورئيسة قسم والله .

حاول "خالد" أن يخفي غيظه وهو يُصافح الطبيب الذي إصطحبهُ "بيبو" حتى باب الشقة .
أدارت "سوكا" جهاز التلفاز ثم أخذت تتنقل بين المحطات الفضائيّة التي كانت جميعها تُذيع برامج "توك شو" حيث تستضيف أكثر مِن ضيف ينتمي كلٍ منهما لتيار ما أو إتجاه فكري مُعيّن ، لا أدري لماذا هم منفعلون دائمًا ولماذا يشرح كل ضيف أفكاره بإعتبارها ديانة ينبغي إعتناقها .
مطّت شفتيها بعدم إكتراث ثم تناولت مُقلّم أظافر وأخذت تقلّم أظافر قدميها مُستعرضة ساقيها بطريقة بها إغراء مُتعمّد غير مُبرر .
أشعل "خالد" سيجارة وإحتلّ مقعد بالقُرب مِنّي حتى عاد "بيبو" قائلا :

- يا لهوي يا جدعان .. ده الأسعار ولّعت ، تخيّلوا الدكتور كسّر الجِبس في خَمَسْ دقايق يقوم ياخد تلات ورقات بمِيّة .. ده القيامة هتقوم والله .

ثم نظر لــ "سوكا" كأنه يستعطفها : معلش يا قلبي أخذْت التُلتمية جنيه دُولْ مِن فلوسِك .
وإتجهَ بعينِيه ناحيتي مُستطردا : خلاص هانت وشكلنا هنقبض.. مِش كده ولا إيه يا عم "حمدي"؟
إعتدل "خالد" في جلسته مُنتظرًا إجابتي ولمعت عينا "سوكا" بترقّب ، تعمّدت الصمت للحظات قبل أن أقول ضاغطًا حروف كلماتي :
- ده بَدَلْ ما تقول حمد الله ع السلامة يا عم "حمدي" ، مالك ملهوف على الفلوس قوي كده ليه ؟.
جَلَسَ في مُواجهتي وإبتسم بسخرية : تِصدّق عندك حق ، حمد الله على السلامة يا عم "حمدي" .
ثم أشعل سيجارة وكسى صوته بجديّة مفاجئة : هتجيب الفلوس إمتى يا عم "حمدي" ؟ .
رددت عليهِ بصرامة : كله بأوانه يا "بيبو" .
تصاعدت ضحكة مبتورة مِن "سوكا" : عم "حمدي" يُقصد يقول لك .. في المِشمش يا "بيبو" .
نظر لها "بيبو" بدهشة ثم عاد بعينيهِ ناحيتي قائلا بصوت ذات مغزى :
- لا يا قلبي .. مستحيل عم "حمدي" يقصد كده ، ليه هو مِستغني عن عمره ولا إيه ؟ .
- معقول يا "بيبو" تقتلني عشان خمسة مليون جنيه ؟ .
رد بتهكم : لا وإنت الصادق .. عشان خَمَسْ آلاف جنيه ، "بيبو" ما يتنصبش عليه يا برنس .
- ومين قال إني عايز أنصُب عليك ، ده أنا عايز أعمل تعديل في الإتفاق ، يعني بدل ما تاخد خمسة مليون .. تاخد عشرين .
همّت "سوكا" أن تقول شيئًا لكنها أغلقت فَمَها وعادت تنظر في التلفاز كأنها غير مُهتمّة .

بينما شعرت أن "خالد" سينقض عليّ لإنتزاع الكلام مِن فمي ، لكنه إكتفى مشكورًا أن سألني ببرود : هو إنت ناوي تعدّل الإتفاق مع "بيبو" بَس ؟ .

- ودي تيجي برضه يا "خالد" ، إحنا مع بعض في كل حاجة .

أخذت شهيقًا قويًا قبل أن أمُرّ بعينيّ عليهم .. عندما فكرت بهدوء ، وجدت أن لا داعي لإخفاء مبلغ ثروتي الحقيقي ،فأنتم ستكونون معي وقت إستعادتها ، وفي كل الأحوال ستعرفون كم هى ؟

وفي اللحظة التي تأهّبت أن أُلقي عليهم مفاجأتي وجدت "خالد" يقول بثقة.. تسعين مليون جنيه .

إنتفضت "سوكا" وهى تتبادل نظرة شديدة الخصوصيّة مع "بيبو" ، في حين سألته بدهشة :

- وإنتَ عرفت إزّاي ؟ .

رد "خالد" ببساطة : عملت تحريّات عن قضيّتك وعرفت كل حاجة .

نظر له "بيبو" بضيق : يعني كنت عارف وساكت .. ده الكلام على غدر بقى .

- إيه الغدر إللّي في كده ، ما أنا عارف إن "حمدي" كده كده هيقول .

ساد صمت مُغرق بالتوتر للحظات قبل أن أقول : مفيش غدر لحد دلوقت ،وأتمنى إن مايحصلش.

ثم نظرت لــ "سوكا" قائلا بطريقة حاولت أن أجعلها آمرة :

- ما تطفي التليفزيون يا "سوكا" وتيجي تقعدي جنبنا هنا عشان هقول كلام مهم .

مِن الواضح أن لهجتي لم ترُق لها إذ هزّت رأسها نفيًا ببرود ، أطفأ "بيبو" سيجارتهُ بعصبيّة :

- كلام إيه المُهم يا عم "حمدي" ؟ .

إعتدلت في جلستي ناظرًا لــ "خالد" ثم عُدت إلى "بيبو" :

- بُصّوا يا جماعة .. إحنا شُركاء ، إنتم الإتنين ساعدتوني ومِن غيركم كان زماني ميّت .

لِتُفاجئني "سوكا" كعادتها : قصدك إحنا التلاتة يا عم "حمدي" .. إحنا التلاتة سُكّر نباتة .

رد "خالد" بخشونة : لأ .. إنتِ و"بيبو" حِتّة واحدة .

هنا جاء دور "بيبو" في الرد ، لكنه لم يرد بكلام ، إنما بصوت حيواني بحت خَرَجَ مِن أنفه ، على أثرهِ إنقبضت عضلات وجه "خالد" وقبل أن يتكلم وضعت يدي على فمهُ قائلا بصرامة :

- إسمعوا يا جماعة .. أنا صاحب المال وأنا إللّي أقول يتوزّع إزّاي .

ثم إستطردت بصرامة أكثر .. بإمكاني الإنصراف الآن ثم العودة بعد يومين لألقي لكلٍ منكم بخمسة مليون كما إتفقنا سابقًا .

قلّلت حِدّة صوتي ووضعت إبتسامة هادئة على وجهي مُتابعًا .. لكن في هذه الحالة ستخسرون ، طالما بإستطاعتكم إكمال الطريق معي والحصول على عشرين مليون .

ثم نظرت بإتجاه "سوكا" قائلا بود : والبِت الغلبانة دي تاخد عشرة .. مِش خسارة فيكو ولا فيها .

تدخل "بيبو" في الحديث قائلا بخبث : إستنّى بَس يا عم "حمدي" ، إنت بتقول أمشي وأرجع عشان تبعتر علينا ملايينك .. هوّ أنا أضمن منين إنك ترجع .. ومين أصلا هيسيبك تمشي ؟! .

إبتسمت بسخرية قبل أن أردّ بمكر .. لا ضمانات ، وفي حالة أن قررت الرحيل فماذا ستفعل .. هل ستقتلني ؟ ! ، بإمكانك ذلك إن كنت لا تريد الثروة .

إنتظرتُ لحظة ثم إسترسلت بنفس الطريقة .. وإن قررت أن تُعذّبني لأرشدك على مكان الملايين ، فلن أفعل وإن قطّعتني إربًا ، أنا رجل ليس لديّ ما أخسره ، ولا أمل لي في الدنيا سِوى هذا المال الذي دفعت

ثمَنهُ مِن سُمعتي ومكانتي وعُمري كلّه .. فهمت ؟.. أم تحتاج إعادة شرح ؟ .
أخيرًا سمعت "خالد" يقول بطريقته العمليّة : كلام سليم يا "حمدي" .. إيه هو الإتفاق الجديد ؟ .
منحته إبتسامة مُشجعّة ثم نظرت لـ "بيبو" بتساؤل : معانا يا "بيبو" في الإتفاق الجديد ولا إيه ؟ .
وضعَ ساقًا فوق أخرى وهو يقول بدهاء : ربّنا ما يفرقنا عن بعض .
نظرت لـ "سوكا" لأجدها تُتابع بإهتمام مُقدّمة إحدى برامج التوك شو كأنها أحد النشطاء السياسيين المُنتشرين بكثافة هذه الأيّام .
عُدت لـ "بيبو" و"خالد" ثم تكلّمت بحذر .. في البداية كنت أتمنى دعوتكم لقراءة الفاتحة على مَن يخون العهد ، لكني أعلم أن لا طائل مِن ذلك ، فمَن ينوي الغدر لن تعوقهُ الفاتحة ، لذا فقط أريد أن أذكركم بأن مبلغ عشرون مليونًا ليس بالقليل .. فلا داعي للطمع .
لم يبدو على وجهيهما أيّ إنطباع لكلماتي فإستطردت بجديّة .. حاليًا أنا أملك تسعون مليونًا ، أنتم ستأخذون خمسون والأربعون الباقية لي ، لكن ماذا سأفعل بهم وأنا مَيّت ؟ .
ردّت "سوكا" برقة : بِعد الشر عليك يا عم "حمدي" .. ربّنا يدّيك الصحة وطولة العمر .
يبدو أن العشرة ملايين الموعود بها بدأت تؤثّر فيها،جاوبتها بنظرة إمتنان قبل أن يسألني "بيبو":
- ميّت ليه يا عم "حمدي" كفى الله الشر ، إنت تاخد فلوسك وتحاول تخلع مِن البلد دي خالص .
- أخلع إزّاي يا "بيبو" إذا كنت مطلوب ؟ .
- هو إنت بَس إللّي مطلوب .. ما كلنا مطلوبين .
- بَس أنا مطلوب على وجه السرعة ، أصل الراجل إللّي قتل المأمور قالِب عليّ الدنيا .

هزّ "بيبو" رأسهُ مُوافقًا : أيوة عارف ، في عيّل مِن المُسجّلين معاه صورة لِك وسألني عليك .
صَعَقَني ردّهُ ، هذا الخبيث يعلم أن هناك مَن يبحث عنّي تحديدًا ولم يُخبرني ، هذا هو الفارق بين مَن يستخدم سُمّهُ ومَن يعصر بعضلاته إذن ..وإن كان كلاهما قاتل .
هززت رأسي بأسف: يعني كنت عارف وداريت عنّي ده "خالد" أوّل ما عَرَفْ بلّغني على طول.
نظر لـ "خالد" كمَن ينظر إلى طِفل أبله ثم قال : أنا قُلت دي حاجة عادية .. ما كلنا مطلوبين ، وأنا أصلا توّهت الواد إللّي سألني وقُلت له إنك تقريبًا مِستخبّي عند واحد صاحبك في "الفيوم" .
إبتسمت قائلا : فيك الخير والله .. نرجع لموضوعنا ، دلوقت الراجل ده أكيد هيوصل لي ، ده المُخبرين بيسألوا عليّ والمُسجلين عايزين يجيبوني ، تفتكروا هقدر أهرب مِن كل دول إزّاي ؟.
سأل "خالد" بخشونة : وإيه المطلوب يعني مِن النهاية ؟
جاوبتهُ ببساطة : نخلص مِنهُ طبعًا .. ودي مِحتاجة كلام يعني يا باشا .
أطلت الدهشة مِن الوجوه وساد الصمت لحظات ثم قطعهُ "بيبو" بضحكة عالية :

- إيه إللّي بتقوله ده يا معلم، نخلص مِنه !! ،نقتل كده مرّة واحدة ، معلش والله ده مِش تخصصّي.

رددت عليهِ بإبتسامة لزجة : يا سيدي غيّر مجالك مرّة ، دي عشرين مليون جنيه ، غِير العشرة بتوع "سوكا" ، يعني لو قعدت عمرك كله تسرق عربيّات .. مِش هتعمل نُصّهم .
أطلق "خالد" زفرة عالية : قتل إيه يا "حمدي" ، جريمة قتل دي يعني الداخليّة بتتقلب عليها .

- ولا هتتقلب ولا حاجة ، ما كل يوم الناس بتموت عادي ، ثم هى فين الداخليّة إللّي تتقلب ، ما إحنا سامعين في التليفزيون كل يوم إن الظُبّاط هربانين وبيستخبّوا .

رد ببرود : لا خلاص بدأوا يرجعوا ، كمان إللّي ناويين نخلص مِنه ده رتبة كبيرة في الداخليّة .
ضحكت قائلا : فيها إيه يا "خالد" بَس ، رُتَب أكبر مِنّه ماتوا اليومين إللّي فاتوا .. عادي ، ثم الرتبة ده بنفسه قتل لواء .. يعني رتبة أعلى مِنه، كان حَصَلْ إيه يعني ؟ .
ثم إستطردت ببساطة شديدة :

- إحنا هنخلص على فاسد عشان ننضف البلد ، وإذا كنت قلقان مِنه عشان رتبته ، عايز أطمّنك .. هيحصل إيه يعني ؟ ، إذا كان وزير الداخليّة نفسه في السجن ، يعني مِين هياخد حق مِين؟ .

شعرتُ بالسعادة عندما لمحت بَوادر إقتناع على وجوههم ، عَقَدَ "خالد" حاجبيهِ بتركيز ثم قال :

- عشان ننفّذ الحوار ده ،لازم نجمع معلومات تفصيليّة وهنجمع معلومات إزّاي عن حد مجهول.

ألقت "سوكا" إحدى إجاباتها المدهشة : أنا أعرف شيخ مِن الواصلين .. نروح له .. ده سِرّه باتع .
كتمت الضحك بصعوبة : ماشي يا "سوكا" .. نروح له ، بَس لازم الأوّل نِدوّر بطريقة تانية .

- لا تانية ولا تالتة ، إحنا نروح للشيخ ده ونقول يارب ، وبإذن الله ربّنا هيعتّرنا فيه .

إلتفت ناحيتها وقبل أن أقول شيئًا إتسعت حدقتاي بِشدّة .. يبدو أن "سوكا" بكل خطاياها بها شيء لله ، فما كادت تقول يارب حتى نظرت بالصدفة ناحية التلفاز بجوارها ، لأجد مُقدّمة البرنامج تُوجّه حديثها لأحد الأشخاص بإعتبارهُ خبير إستراتيجي .
تأملت ملامح هذا الخبير ، شعرهُ الأسود القصير المُزيّن ببعض الشعيرات البيضاء ، وجههُ المُربّع ، أنفهُ الطويل المُستقيم ، عيناهُ السوداء الثاقبة ، نظراته الحادة .

أشرتُ إليهِ بأصابع مُرتعشة قائلا بصوت مُتحشرج : مِش محتاجين نروح للشيخ يا "سوكا" .
وأدرت وجهي لـ "خالد" المُتحفّز و"بيبو" المُراقب قائلا بحسم : هو ده إللّي قتل اللواء "البدران"

ـ ٢ ـ

بعد مرور أسبوعين ..
إستيقظت حوالي الواحدة ظُهرًا ، نظرت بجواري لأجد "خالد" يتصفّح أحد الجرائد بإهتمام ، تلك الجرائد التي يحرص "بيبو" أن تكون يوميًا أمام الباب مع أنهُ في مُعظم الأيام لا يقرأها ، أعتقد أنه يعتبرها نوع مِن الوجاهة الإجتماعيّة أمام الجيران الذي يظن مُعظمهم أنه زوج "سوكا" وأنا زوج عمّته و"خالد" شقيقي الأصغر ، وكلانا موجود في "القاهرة" للبحث عن عمل كما أكدت "سوكا" عليهم .
سمعت صوت "بيبو" مِن المطبخ يُحادث شخصًا ما في الهاتف قائلا بطريقتهُ المرحة :

- هو إيه إللّي حَصَلْ في الدنيا يا حاج ؟ .. عربيّة "لانسر" موديل الفين وسبعة تِتباع بِعشَر آلاف جنيه ليه ؟! .. هوّ أنا سارِقها ؟! .

لحظات وسمعتهُ يقول : لا والله ماينفعش ، ده إنتَ لو رمِيت الموتور والشاسيه وبِعْتْ الباقي كل حِتّة لوحدها .. يطلع لك فيها خمسين سِتين ألف بالراحة .
صَمَتَ بُرهة ثم إستطرد : هو أنا برضه هبُص لك في لقمتك .. الله يبارك لك يا سيدي ، بَس برضه تراعيني وأراعيك ، يعني مِش خُسارة في "بيبو" الغلبان عِشرين ألف ، وعلى رأي الفنان "علي الحجار" .. "مِنّك شِويّة وأنا شِويّة .. حَبّة عليك حَبّة عليّه ، لو هتراعيني المَرّة دي.. هشوفك المَرّة الجايَة " .
وَددتُ أن أُقسِم أن "علي الحجار" لم يَقُلْ هذا الكلام أبدًا ، لكني كالعادة آثرتُ الصمت وهو يقول :

- آخر كلام يا حاج .. خمستاشر ألف مقفولين وقول آمين بقى عشان وربّنا ما هنزّل جِنيه واحد .

ثم أنهى المُكالمة : خلاص .. آمين يا حاج ، إبعت حَدْ ياخدها مِن تحت البيت القديم .
إنتهت البيعة بسلام ، نظرت لـ "خالد" فوجدتهُ يتمتم :
- بقى عربيّة زيّ دي تِتباع بخمستاشر ألف يا كفرة .. الله يكون في عون صاحِبها .
لا زال ضميرهُ حيًا إذن ، هززت رأسي مُوافقًا مع إبتسامة مُتحسّرة ، في الحقيقة أرى أن "خالد" هوَ أكثر مَن في هذا الجُحر وضوحًا ، وإن كان هذا لا يُقلل مِن حجم خطورته ، لكنهُ حاليًا أكثرَهم فائدة ، يكفي أنه أَخَذَ على عاتِقهُ مُهمة جَمْعْ المعلومات عن الهدف ، ومِن الواضح أنها مُهمّة ليست سهلة ، فبعد مرور إسبوعين لم يتحصّل على معلومات تُذكَر سِوى أن الهدف ضابط في جِهاز الشرطة برتبة مُقدّم إسمهُ "محمد التاجي" ، كان يعمل في فرع التفتيش على السجون حتى يناير الماضي، وإنتقل مُنذ أيّام لمديريّة أمن القاهرة في أعمال إداريّة .
تحوم حولَهُ شُبهات أن له توجهّات مُستترة ولهذا ألحقوه بأعمال إداريّة ، فقد تساءل في أَحد حواراته عن سبب منع الضُبّاط مِن إطلاق اللِحى مع ترك حريّتهم في إطلاق الشارب ، مع أن اللحى غير ممنوعة في دول عديدة ، ودعم وجهة نظره بِصُور لضبّاط ملتحون في بلاد إسلاميّة .
لن أنسى نظرة الغضب في عينيّ "خالد" وقتها ، إذ أكد بثقة أن هذا الرجل يسعى لتدمير الداخليّة.
وخَرَجَ صباح اليوم التالي ثم عادَ في المساء أكثر وجومًا وهو يؤكد أن "التاجي" رجل ليس بالسهل على الإطلاق ولابد مِن وضعْ خِطّة مُحكمة لإقتناص صيد صعب المَنال مِثلهُ .
- صباح الفل يا جماعة ، أنا حضّرت الفِطار ، شايفين الخدمة الخَمَسْ نجوم ، كأنكم قاعدين في شيراتون باب الشعريّة بالظبط.. يارب يبقى بفايدة في الآخر .
هكذا ألقى "بيبو" تحيّة الصباح ، رددت تحيّتهُ بود ثم تركتهما يتناولا فطورهما ودخلت الحمام ، في حين ترك "خالد" الجريدة وذَهَبَ معه

حيث مائدة الطعام في الصالة دون أن يتحدّثا تقريبًا ، هكذا هما دائمًا .. كالقطبان المُتنافران ، ذلك مِن حُسن حظي بالطبع .
تركت جسدي لدقائق تحت الماء ، طاف بذهني ــ رغم كِبَرْ سِني ــ أن في هذا المكان حيث أقِف تقف "سوكا" أيضًا ، كنت أتمنّى أن أشعر بإثارة أكبر وأنا أتخيّلها عارية ، كذلك تمنيّت لو كنت قابلت هذه الأنوثة المُتفجّرة قبل عشرين عام ، كان مِن الممكن أن تتغيّر أشياء كثيرة .
أو قد لا يتغيّر شيءٌ على الإطلاق ، إذا كان "خالد" بكل شبابهِ وقوته وهيئته وهيبته لم يُحرّك فيها شعرة ، فماذا كنت فاعل أمامها ، كيف أروّض أفعى تتفاخر بأنها ملكيّة خاصة لـ "بيبو" .
وإحقاقًا للحق .. "بيبو" يستحق ، يكفي روحهِ المرحة وذكائهِ ووسامته وجرأته .
خرجت مِن الحمام ثم جلست معهم على المقعد المَتروك لى ، نظرت للمائدة مُقارنًا هذا الإفطار بما تُعدّه "سوكا" ، للأمانة .. هى أكثر كرمًا منه ، حتى وإن كانت أقلّ كرمًا ، فوجودها فقط على المائدة فاتح شهيّة، بالمناسبة أين هى ؟ ، سألت "بيبو" عنها فجاوبني بإقتضاب .. في مِشوار .
ألقى إجابته بطريقة مَن لا يُريد الإضافة ، قاومت فضولي لمعرفة أي جديد عن حياتهما الغامضة أخذت أتناول لقيماتي صامتًا مُراقبًا "خالد" الذي إنتهى مِن طعامه وأشعل سيجارة ، إنتهى "بيبو" مِن إفطاره وقام يُعدّ الشاي قائلا : فِطار وشاي وخدمة عالية .. فاضِل بَسْ إن أجيب لكم جواري .
لا يكف أبدًا عن مُعايرتنا بالرغم مِن أنه يُسجّل كل قرش يصرفه .. وبالفوائد ، عَقَدَ "خالد" حاجبيه بضيق وهمّ أن يقول شيئًا لكن فجأة فتحت "سوكا" باب الشقة وإندفعت للداخل وعلى وجهها أقصى آيات الجَزَعْ : إلحقني يا "بيبو" إلحقني .. "سوزي" إتخطفت .
إتسعت حدقتا "بيبو" بذعر وأطلق همهمات غير مفهومة فإستطردت بصوت كالصراخ :

- بنتي راحت يا "بيبو" .. رااااحت .

وإنفجرت بالبكاء .. إذن الأفعى لديها طِفلة ، كيف لم أرها طوال هذه الفترة ؟ ، ثم لماذا لم تَقُلْ لـ "بيبو" إبنتنا خُطِفت وقالت إبنتي ، قبل أن أُلقى تساؤلاتي سَبَقني "خالد" بطريقتهُ العَمَليّة :

- إتخطفت فين وإزّاي ؟ .

لم يجرؤ "بيبو" على إعتراض تدَخّله ولم تقاوم "سوكا" التي تتمنّى التعلّق بأي قشة فإندفعت قائلة

- كانت مع واحدة صاحبتي في شارع جسر السويس ، صاحبتي دخلت محل تِقِيس عباية وسابتها جنبها .. مرّة واحدة مالقتهاش، والمَحَلْ كان زحمة والبنات إللّي هناك بيقولوا ماشوفناش حاجة.

سألها "خالد" عن سِن إبنتها فأجابت ثلاثة سنوات ، فسألها إن كانت صاحبتها عَمَلت محضر ،أجابته وهى تلطُم خدّيها بأن ما جدوى المَحضر وأين هى الحكومة أصلا لترجع لها بنتها .

ثم دفنت رأسها في صدر "بيبو" وأجهشت ببكاء مُرّ ، لأوّل مرّة أرى العجز والإرتباك على وجهه وهو يُحاول تهدئتها دون جدوى ، بهدوء أشعل "خالد" سيجارته قبل أن يقول بصلف :

- إهدِي يا "سوكا" .. إهدِي وأنا هجيبهالِك .

إنتزعت رأسها مِن صدر "بيبو" ونظرت له بعيون مغرورقة بالدموع : بِجد يا باشا ؟ .

هز رأسهُ إيجابًا بثقة ثم طَلب مِن "بيبو" شريحة هاتف محمول غير معلومة الهويّة ، رد بصوت حاول أن يكون هادئًا : غالي والطلب رخيص .

دَخَلَ غرفته وعاد بعد لحظات لِيُعطِيه شريحة محمول ، وضعها "خالد" في هاتفه ثم عَقَد حاجبيهِ كأنه يُحاول تَذَكّر رقمًا مُعينًا ، أخيرًا بدأ يُجري مُكالمة ، فإبتسم "بيبو" بخبث قائلا :

- ما تفتح الإسبيكر يا باشا عشان نتعلم السيطرة مِن سيادتك .

رمقتهُ "سوكا" بنظرة مُستنكرة ، وهزّ "خالد" كتفيه بلامبالاة وهو يفتح مُكبّر الصوت .
تحمّلنا رتابة رنين المُكالمة بصبر حتى جاوبهُ صوت خَشِن يسأل مَن المُتصل ، بهدوء واثِق ذكّرَهُ "خالد" بنفسه ضاغطًا حروف كلماته وهو يقول الرائد "خالد الشناوي" يا "جَمَلْ" .
أطلق المدعو "الجَمَلْ" ضحكة عالية وهو يُرحب بـ "خالد" ترحيب تشم فيه رائحة شماتة وهو يُخبره أنه مُتابِع لأخباره ويعلم أنّه هرب مع مَن هربوا مِن سجن "الفيوم" .
عقد "خالد" حاجبيه بغضب خاصةً عندما لَمَحَ نظرة تشفي ترتسم على وجه "بيبو" ، لكنه إسترسل في ثبات يُحسّد عليه أنه يريد منه "مصلحة"، وبغتة سأله إن كانت لديهِ أي معلومات عن طِفلة إختِطفت اليوم مِن محل ملابس في منطقة "جسر السويس" مؤكدًا عليه أن هذه منطقته ولابد أن يعلم دبّة النملة فيها .
فوجئت فعلا عندما قاطعهُ "الجَمَلْ" بهدوء بأن الطفلة كانت ترتدي فستانًا أحمرًا وحِذاءًا أبيضًا . إنتفضت "سوكا" وكتمت صرختها بصعوبة وهى تُشير إليهِ بأن طفلتها كانت ترتدي هذه الملابس بالفعل ، هزّ "خالد" رأسه ثم قال لـ "الجمل" بصرامة أنه يريد هذه الطفلة الليلة، رد بصوت ساخِر أن مَن خطفوها لن يطلبوا مبلغ أقل مِن مائة ألف جنيه ، لكن إكرامًا له سيضغط عليهم ليقبلوا بثمانين ألف فقط ، للعجب رد "خالد" عليهِ بضحكة عالية نادرًا ما تخرج مِن فمه :
_ مِش عيب يا "جَمَلْ" تاخد مِنّي فلوس قُصاد خدمة أطلبها مِنّك بعد العِشرة إللّي كانت بيننا .
رد ساخرًا : عشرة إيه يا باشا ! ، ما بلاش الكلام إللّي يتفَهَم شِمال ده ولا مُؤاخذة ، وثم هوّ إنت فاكر إن البت هترجع واجب كده !! ، زمَن الواجب خُلُصْ خلاص وفي ثورة قامت في البَلَدْ .
أجاب "خالد" بخشونة: هوّ إنتَ كمان بتتكلم في الثورة ! ، ده إنت كنت أحسن مُرشِد شغّال معايا .

- يعني هى جات ع المُرشدين يعني ما كل الناس بتتكلم ، وبعدين إنت ليه بتتعامل كأنّك لسّة في الداخليّة ، إيش حال إن ماكنتش هربان ومِستخبّي مِش قادر تطلع مِن مكانك .

وصَمَتَ "الجمل" لحظة ثم إستطرد مُتهكمًا :

- بُصْ .. أنا هعمل حِساب للعِشرة والعِيال إللّي بيننا ، وهناخد منك سِتين باكو وده آخر كلام .

أشارت "سوكا" بلهفة تستحثه المُوافقة ، لكن "خالد" أشار لها أن تصمت ثم رد عليه بثبات :

- لا إسمع إنت يا روح أمك آخر كلام .. فاكريا "جَمَل" قضيّة الواد إبن "حمزة الجِبالي" ؟ .

وإبتسم قبل أن يستطرد : شكلك نسيتها .. أفكرك ، لمّا بلغتني على نَقلة مُخدرات ، ولمّا حطّينا على التجار .. قاوموا فضربنا عليهم نار ومات تلاتة كان مِنهم إبن المِعلم "حمزة الجبالي" .

ثم أشعل سيجارة مُكملا :

- المعلم "حمزة" يا عيني دَخَلْ الشك قلبه وإفتكر إن إللّي باع إبنه واحد مِن رجّالته ،ده أنا عرفت إنه قتل أربعة مِن صُبيانه لمجرّد الشك ، تلاقيه قال أكيد واحد منهم هو إللّي بلّغ .. فقتلهم الأربعة.

وإستطرد مِتهكمًا :

- المُكالمة بتاعة الإخبارية أنا مِسجلها يا حيلتها ومعايا ، تِحِبْ أبعتها لـ "الجبالي" وأعرّفه إن إللّي بلغ هو مُرشِد جربان عَرَف المعلومة بالصدفة وهو إللّي باعكم وإتسبب في موت إبنك ؟ .

رد "الجَمَلْ" بصوت مُتلعثم : إنت بتشتغلني .. مِش كده ؟ .

- إسمع يا خيبتها ، النهاردة الساعة تسعة عند محطة المترو إللّي على أوّل شارع القصر العيني ، البِت تبقى في حُضن أمها .. تسعة وربع "الجبالي" هيعرف ، وإنت فاهم بقى هيعمل إيه ؟ .

لم يمنحه رفاهية الرد ، أغلق الهاتف ثم إنتزع الشريحة وألقاها بإهمال ، صرخت "سوكا" :

- وإيه لازمة كل ده ؟ ، كنا دفعنا له الفلوس وأخدنا البت .
- لو وافقنا على السِتين .. وقت التسليم هيبقوا مِيّة وسِتين .. دي ناس وسخة وأنا عارفها .

ثم نظر لــ "بيبو" مِن أسفل لأعلى قائلا : إبسط يا عم .. هرجع لك بنتك الساعة تسعة مِن غير ما تدفع ولا مليم .

تبادل "بيبو" و"سوكا" نظرة مُضطربة ، فإستطرد "خالد" ساخرًا :

- عارف إنها مِش بنتك ، أنا عامل الواجب ده مِش عشانك .. ده عشان خاطر "سوكا" .

إنعقد حاجبا "بيبو" بقوة ، لكنه قال بلهجة غامضة :

- تعيش يا باشا ، ربّنا يقدّرنا على رد جمايلك .

لم أتدخل في صِراع فرض النفوذ الدائر ،وإن خشيت تحوّل المسار ليُصبح معركة لإقتناص قلب أنثى ، إحتفظت لنفسي بحق التدخّل في الوقت الذي أراه مُناسبًا ، وإن كنت مِن داخلي مُستمتع بالمراقبة في حذر ، فالحذر هو الضمان الوحيد للبقاء حيًا وسط كائنات لا تسمح لك بالخطأ مرتين ، الخطأ الأوّل هو دائمًا الأخير ، فلا مجال للعبث أبدًا وسط .. الأفاعي .

_ ٣ _

في تمام الثامنة نزلت مِن المنزل مُستندًا على ذراع "خالد" ، فللأسف قدمي لازالت تؤلمني كلما أرهقتها ، إستوقف سيّارة أجرة وطلب مِن قائدها الذهاب لأقرب نقطة مِن شارع القصر العيني مُتفاديًا الميدان المغلق بسبب المظاهرات والإعتصامات .
لم يُبدِ "خالد" أيّ تأثّر بكلام سائق التاكسي وهو يشتكي مِن الإنفلات وسوء الحال ، كذلك تأثير المُظاهرات الفئوية على الطُرُق ، إنما صَدَمَهُ قائلا ببرود : شِدّة وتزول إن شاء الله .
دقائق ووصَلنا عند مدخل الميدان ، نَظر "خالد" حولهُ قبل أن يقول بمكر :
- تعالى نِتمشّى شِويّة عشان نتفرّج على الثورة الجميلة .
كنت أعلم مدى كراهيته للأحداث الأخيرة ، ومُدرك لِتعصّبه الشديد لجهة عمله وزملائه القُدامى الذين تحمّلوا عبئ كل شيء وفي النهاية تعلقت في رقابهم المسئوليّة كاملة .
مشيْت بجوارهِ صامتًا مُشاهدًا الميدان الذي تطئه قدمي لأوّل مرّة وداخلي شعور أني لو كنت حرًا لشاركت منذ البداية ، لكن مهلا .. هناك إعتصام قائم في الميدان بأمر الثُوّار .. فأين هم الثُوّار ؟!.
لا أرى في الميدان كله سِوى بِضع عشرات مُقسّمون على مجموعات مُتناثرة ، باعة جائلون منتشرون ، مجموعة مِن الشباب المُثقف جالسون بجوار خيمة في منتصف الميدان ، أحدهم يُجري حوار مع قناة فضائيّة ويُغني بإندماج حالِم .. " ليه الثورة جميلة وحلوة وإنت معايا " !!! .
هناك أيضًا مجموعة تجلس أمام مُجمّع التحرير تُمرّر في ما بينها سيجارة أشكّ في مدى شرعيتها، كذلك هناك مجموعتان تدلّ ملابسهم وإبتذال حوارهم أنهم لا يمتّوا للثوار الحقيقيين بأيّ صِلة ، لماذا

يتواجدوا هنا كأنّهُ بيتهم .. كأنّهُ ميدانهم ، ولماذا ترك الثوار الميدان لمثل هؤلاء ؟ .
قرَاَ "خالد" تساؤلاتي مثلما يفعل دائمًا فإبتسم بسخريّة وهو ينتقي لنا مكانًا مواجهًا لمحطة المترو حيث كانت "سوكا" جالسة وحدها بادي عليها التوتر ، في حين جلسَ "بيبو" على الرصيف على بُعد أمتار منها، تفاديت سخريته وتهكمّه المُتوَقّع وأدرت دفّة الحديث لِما جئنا خصيصًا له :

- "خالد" .. إنت مُتأكّد إن الراجل ده هيخاف ويرجّع البنت ؟ .
- مفيش عنده حل تاني ، "الجبالي" لو عرف مِش هيرحمه ، وهوّ عارف كده كويّس ؟ .

وصمت لحظة ثم إستطرد بصرامة : في نوعيّة مِن البَشَرْ لازم تبقى عينيها دايمًا مكسورة .. وده لمصلحتها والله ، لأنّه يوم بيشوف نفسه ، للأسف مِش بيعيش كتير .
حاولت أن أفكر في ما يقول وهل يقصد بحديثه خاطف البنت المدعو "الجَمَلْ" أم أنه يقصد "بيبو" ؟ ، قبل أن أطرح عليهِ سؤالي لمحت درّاجة بخارية مِن الدرّاجات المُنتشرة في الميدان بكثافة ، آتية مِن عند ناصِية مسجد "عُمَر مكرم" باتجاهنا ، سُرعتها عالية ويقودها شاب مِن ذوي الملامح الغير مُريحة ، وخلفهُ شاب آخر وبينهما طفلة صغيرة.
نظرت لـ "خالد" فوجدتهُ يتُابعهم بتركيز ، هدّأت الدراجة مِن سرعتها بالقرب مِن "سوكا" التي ما أن رأت صغيرتها حتى صرخت بإسمها والدموع تنفجر مِن عينيها ، لم يُغادر الشاب الجالس خلف السائق مكانه، إنما حَمَل الصغيرة وقَذَفها نحو أمها التي تلقفتها وإحتفظت بها بين ضلوعها.
في هذه اللحظات تحرّك "بيبو" بخفة حتى صار على بُعد خطوتين من قائد الدراجة الذي بدأ يدور بها عائدًا ، لم ينتبه الرجل إلى الثعبان الرابض جانبه الذي أشار له قائلا بإبتسامة ودودة :

- والنبي يا صاحبي ؟ .

نظَرَ قائد الدراجة ناحيتهُ ليتلقى وجههُ ضربة مِن مطواة أخرجها "بيبو" بسرعة البرق مُحدثًا قطع طولي في وجهه ، قبل أن يُفيق الرجلان مِن هَوْل الصدمة أو يتخذا تدابيرهما كان "بيبو" قد أحدث فيهما إصابات بالغة بضرباته السريعة المُتوالية المُتقنة .
أثارت المعركة حالة هرج شديد وأتت ببعض الشباب مِن ذوي الملامح المُريبة وسألهُ أحدهم :
- هوّ في إيه يا عم إنت .. إيه إللّي بتعمله ده ؟ .
أجابه وهو يركل قائد الدراجة ثم يعدلها : مفيش حاجة .. ده موضوع عائلي وخلاص حلّيناه .
ثم ركب الدراجة البخارية مُشيرًا لــ "سوكا" :
- يالله يا "سوكا" عشان ماتش "الأهلي" الساعة عشرة .. يعني يادوب نلحق .
وقف أحدهم أمام الدراجة قائلا بلهجة عنف واضحة :
- ماتش إيه يا حِلو !! ، إنت مِش هتمشي مِن هنا غير لمّا نعرف إيه الحِوار ده ، هوّ إنت مِفكّر الميدان مالوش صاحِب ولا إيه؟.
بَدَأ بعض الشباب يتجمّع حول "بيبو" وإنضمت لهم فتاتان تبدوان كالعاهرات ليصنعوا حائل بينه وبين "سوكا" ، إنقبضت عضلات "خالد" ، هبّ واقفًا وهو يتأهّب لعبور الشارع :
- "حمدي" .. مهما حَصَلْ ماتتحركّش مِن مكانك .. فاهم .
لم يترك "بيبو" الفرصة لــ "خالد" ، أو وقت يسمح لهُ بعبور الشارع ، إذ سارع يقول للواقف أمامه : وإنت بقى يا نجم صاحب الميدان ؟ .
- أيوة .. وإنزل ياض ورّيني بطاقتك .
- كمان عايز تشوف بطاقتي !! ، ومالـه يا حضرة الظابط .. أوريهالك .
ثم وضع يده في جيبه مُستطردًا : بَس والله تستاهل تشوفها طالما صاحب الميدان .

وبسرعتهُ الفائقة أخرج فَرْدْ الخرطوش الذي قال عنهُ "الدُش" أنه ربما يحتاجه وأطلق طلقة مُباشرة على صدر صاحب الميدان ، على أثرها أطلقت الفتاتان صرخات عالية وإندفع أحد الشباب نحوه ليتلقى طلقة أخرى نجحت في إختراق ذراعه ، ونجحت أيضًا في إيصال رسالة أن الإقتراب ممنوع ، فإندفعوا جميعًا بعيدًا عن "سوكا" التي دنت مِنه مُحتفظة بإبنتها في صدرها ، وكعادتها تفاجئني دائمًا بما لا أتوقعه ، إذ سمعتها ـ رغم حالتها المُزريَة ـ تقول بدلال :

- إيه لازمة تِكلّف نفسك وتعمل ده كلّه يا بيبي ؟ .

ثم ركبت خلفه برشاقة وهو يرد عليها برومانسيّة :

- دموعك غالية عندي قوي يا غزال .. ماينفعش تنزل بالساهل .

ثم نظر في إتجاهنا وعلى شفتيهِ إبتسامة نصر ، وإختصّ "خالد" بنظرة ساخرة .

أبَى "بيبو" أن يمُر هذا الموقف دون وضْع بصمتهُ عليه ، رفض الظهور أمام وليفته بالرجل العاجز الضعيف ،لم يسمح بالتفوّق الكاسح عليه ،وإنتهزها فرصة لإستعراض قدراته وخطورته.

أخَذَ "سوكا" وإبنتها وإنصرف دون أن يجرؤ أحد على إعتراضه ، مكثنا دقائق ثم إنصرفت مُستندًا على ذراع "خالد" الذي شعرت أنّه في حالة مزاجيّة جيّدة فإنتهزت فرصة تواجدنا بمفردنا لأوّل مرة منذُ هروبنا مِن السجن ، لذا قررّت مصارحته بما يجول في خاطري .. "خالد" لابد مِن تغيير طريقة تعاملنا لبعضنا ، أنا أتساءل دومًا كيف أثِق في فريقي وأنتم تكرهون بعضكم لهذهِ الدرجة ، بمنتهى الصراحة أنا لا آمَن على نفسي مِن غدركم .. .

قاطعني بصرامة وبشيء مِن الحِدّة :

- يعني هو إنتَ بس إللّي خايف مِن الغدر .. ما أنا كمان ممكن يتغدَر بيّ عادي .

إستقبلت حِدتَهُ بإبتسامة مُستطردًا .. لكنك تستطيع حِماية نفسك ، إنما أنا.. مَن سيحميني ؟ .

لمحت في عينيهِ نظرة مُتسائلة كأنه يسأل عن ما أريده تحديدًا ، لم أتركهُ لحيرتـهِ كثيـرًا ، أكملـت ببسـاطة .. لابـد أن نعقـد جلسـة مصـارحة مـع بعض، كلٍ منا يفتح قلبه ويُلقي ما في ضميره ، وصدّقني أفضـل توقيت لهذه الجلسة هو اليوم ، وهذا لمصلحتنا جميعا .. صدّقني .
أشعل سيجارة أخذ ينفث دخانها بهدوء ، قبل أن يهز رأسهُ موافقًا مع نظرة غامضة .
لـم أكـن طامحًـا فـي هـذه المرحلـة لأكثـر مِـن موافقـة مبدئيّـة وهـذا مـا حصلت عليهِ بالفعل ،الآن عليّ الدخول في المرحلة الأصعب ، وهى كسب ثقتهم وترويضهم .
أعلم أنه مِن العبَث التفكير في محاولة كسب ثقة مَن يعتبر الغدر سلاحهُ الأوّل ، لكن ما البديل ؟ ، أسير على الأشواك وحدي في مسار إجباري، ولابد أن أؤلّف بين قلوب أكثر مخلوقات الأرض تناحرًا ، فمتى سمِعنا عن حدوث أيّ تقارب بين .. الأفاعي .

ـ ٤ ـ

نظرت في ساعتي وجدتها العاشرة والنصف ، دقّ "خالد" جرس الشقة، ففتح "بيبو" بإبتسامة :
- إتأخرتوا كده ليه ؟ ، ده أنا قُلت إنتوا هربتوا بعد ما ضحكتوا عليّ وأخدتوا فلوسي .
رددت عليهِ ضاحكًا : يادي الفلوس إللّي بتذلّنا بها كل شِويّة ، ده أنا كنت هبوس إيدَك عشان تسلّفني مِية جنيه .
ثم ناولته كعكة إشتريتها : خُد يا سيدي .. أنا إشتريت تورتاية إحتفالا برجوع "سوزي" بالسلامة.
رد بضحكة عالية : وأنا كمان .. إشتريت حِتّة حشيش إحتفالا برجوع "سوزي" بالسلامة .
إحتل كلٍ منا مقعدًا بجوار التلفاز الذي يُذيع مباراة لـ "الأهلي" في بطولة أفريقيا ، جَلَسَ "خالد" بجواري بينما أخرج "بيبو" دفتر ورق بفرة وأخَذَ يُتابع المباراة وهو يلف سيجارة،سألته بترقب :
- إنت أهلاوي يا "بيبو" ؟ .
رد بخفّة ظِلّه : مفيش زملكاوي إسمه "بيبو" يا عم "حمدي" .
ثم أدار وجهه إلى "خالد" الصامت دائمًا وسألهُ : لِك في الكورة يا باشا؟.
هز "خالد" رأسه نفيًا ، فناوله "بيبو" السيجارة المحشوّة : طيّب لك في ده ؟ .
نَظَر "خالد" إليهِ لحظات ثم مدّ يدهُ ببطء وأخذ السيجارة قائلا : ماشي يا "بيبو" يدوم الواجب .
خرجت "سوكا" مِن غرفتها وهى تقول لـ "بيبو" مُحذّرة : وطّي صوتك شِويّة يا "بيبو" .. البنت نامت في السرير بالعافية .
سألها ضاحكًا : طيّب لمّا البنت نامت في السرير .. إحنا هننام فين ؟ .
إبتسمت وهى تراقص حاجبيها بدلع : ننام على الأرض يا بيبي .

أطلق ضحكة ماجنة عالية صائحًا : آه يا قلبي يالّلي دايب .
جلست على رجليه قائلة بمكر :
- شُفت .. إنت إلّلي بتعمل صوت عالي أهو وعايزها تصحى .. شكلك كده عايز تزوّغ الليلة .
لفّ يدهُ حول وسطها وقبل أن يتكلم ، أحرز "الأهلي" هدف ، فصاح وهو يُقبّلها بفرحة :
- أيوة بقى .. دي شكلها ليلة زيّ الفل إن شاء الله .
ضمّها إليه فإضطررت للتدخل حفاظًا على شعرة الحياء الباقية : حمد الله على سلامة "سوزي" .
إلتفتت وكأنها فوجئت بي يبدو أنها مع وجود "بيبو" لا ترى سِواه : الله يسلمك يا عم "حمدي" .
ثم نظرت لـ "خالد" قائلة بإحترام : ألف شكر يا باشا .. جميلك ده على راسي مِن فوق .
هزّ رأسهُ دون أن يُعلّق ، لحظات وأحضرت "سوكا" أطباق وشرعت في تقطيع الكعكة وتوزيعها علينا ، ثم جلست مُلتصقة بـ "بيبو" مُتبادلة معه السجائر .
بعد نهاية المباراة هنّأت "بيبو" ثم أغلقت التلفاز قائلا بهدوء : يا جماعة أنا حاسس إني عملت دماغ مِن كُتر الدخان إلّلي شمّيته .
ردّت "سوكا" بضحكة عابثة طويلة : يبقى دماغك زيّ قهوتك .. ع الريحة .
وجدتهم يضحكون بِشدّة ، حتى "خالد" نجح في الإبتسام ، تشجّعت قائلا: طيّب طالما كلنا عاملين دماغ ، ما تيجوا نعمل حاجة جديدة ، أنا شايف إن أنسب وقت نعملها فيه .. هو الليلة دي .
أطَلّ التساؤل مِن عيونهم جميعًا فإستطردت بهدوء :
- عارفين يا جماعة مُشكلتنا مع بعض هى أزمة ثقة ، مفيش حد فينا واثق في التاني .. مِش كده ؟
رد "خالد" : ما تُدخل في الموضوع على طول يا "حمدي" .

إبتسمت قائلا : عملي قوي إنت يا "خالد" .. مِابتحِبش المُقدّمات .
ثم أخذت شهيق قوي .. الجديد الذي أقصده هو أن نفتح قلوبنا لبعض ، كلٍ مِنّا يحكي قِصّتهُ كاملة بحِلوها ومُرّها .. بحذافيرها ، أليس مِن الجائز أن يتحوّل خوفنا إلى ثِقة إن عرفنا بعض أكثر ؟ .
أتَى هذا الكلام على هوا "بيبو" لأنه لا يعلم شيء عنّي أو عن "خالد" ، فأبدى تأييده لهذا المُقترح مع التشديد أنه لن يحكي أيّ شيء إلا إذا سَمِعَ "خالد" أولا ، الذي قابل طلبَهُ بنظرة باردة لا تنُمّ عن الرضا الكامل ، فأسرعت بالتدخل قائلا :

- الموضوع مِش مِحتاج تفكير يا "خالد" يابني ، كلنا عندنا إللّي نخبّيه ، بَس فيها إيه لو جرّبنا نِقلع أسرارنا ونرميها ، صدّقني ده هيريّحنا وهيفرِق معانا كتير .. جَرّب حتى وهتشوف .

سألتني "سوكا" بغتّة :عم "حمدي" .. هوّ أنا معاكم في موضوع نِقلع ونِرمي والكلام ده ؟ .
إنفجرنا جميعًا بالضحك لفترة ، وبَعد مُفاوضات قصيرة أخذت وعد مِن "خالد" بأن يحكي قصّته كاملة ، لكنه سيكون آخر مَن يَقُصّ القصص .
قبل أن يعترض "بيبو" عاجلتهم قائلا بحسم :ماشي موافقين .. وبعد إذنكم أنا عايز أقلع أوّل واحد.
مطّ "بيبو" شفتيهِ معترضًا لكنه إستسلم في النهاية للأمر الواقع ثم شَرَعَ يلِف عدّة سجائر أخرى ، بينما عقدَ "خالد" حاجبيهِ مُجترًا ذكرياته ،كذلك فعلت .. نظرت للسقف سارحًا في سنوات مَضَتْ. "حمدي كامل أباظة" ، إثنتان وسِتون عامًا ، أستاذ جامعي ومستشار في وزارة الزراعة ..سابقًا .
وُلدت قبل ثلاث سنوات مِن ثورة يوليو التي يقولوا ــ كذِبًا ــ أنها مجيدة، في صِباي لم أشاهد في عيون أهلي سِوى الدموع ، دموع سببها قانون جائر أصدَرهُ بعض الحمقى والمرضى النفسيين مِمَن أطلقوا على أنفسهم ــ كذبًا ــ الضُبّاط الأحرار ، قانون يتنافى مع قواعد الحياة التي سَنّها المولى سبحانه وتعالى ، الله خلقنا وجعل مِنّا الغني والفقير ولكلٍ إبتلائه

بسبب غِناه أو فقره وذلك لحكمة لا يعلمها سِواه ، فبأي حق أصدروا قانون غبي وسمّوه "الإصلاح الزراعي" .
بُناء عليه تقلّصت ثروة جدّي مِن ألف فدّان إلى مائة فقط ، أيّ منطِق يقول أن الأرض التي إمتلكها جدّي بعد تعب وعناء وأَخَذَ يزرعها ويُنمّيها مِن عَرَقَهِ ودَمِه ليورثها أبنائه ، فيأتي شخص جائر جاهل ويأخذها ثم يُلقي له فقط بِعُشرها .
فجأة وجدت الفلاحين الأُجراء أصبحوا مُلّاك في أرضنا بقوّة القانون ، وجدت مَن كان قِمّة طموحِه أن يصافح جدّي أو يسير في موكبه ، الآن يتعامل معه بندّية ومُناطحة وأحيانًا سخريّة ،
سخرية أدّت لوفاة جدّي كمدًا وقهرًا .. هكذا نشأت .
نشات في بيت إحتفل سِرًا بهزيمة سبعة وسِتين ، وإكتئبَ في صمت بعبور ثلاثة وسبعون .
تربّيت على كراهية المصريين بشكل عام وحكّامهم بشكل خاص ، لم يتغيّر شعوري حتى بعد تخرّجي بإمتياز مِن كليّة الزراعة وتعييني مُعيدًا بها .
وعندما قرّرت الزواج .. إخترت أجنبيّة ، فلا تستحق إمرأة مصريّة شرف أن يقترن إسمها بي ، إخترت ألمانية تعيش في "مصر" لعمَل أبحاث عن تأثير مُبيداتهم الحشريّة على الثِمار لكن أعتقد أن هدف أبحاثِها الحقيقي هو معرفة نسبة الوفيّات السنوية بسبب سوء إستخدام ما يُصدّرون إلينا .
بَعد زواجي بِعدّة سنوات ومع وصول طِفلتي الثانية للحياة ، وجدت إتصال هاتفي يُبشّرني بإختياري مستشار فنّي لمعالي وزير الزراعة ، لا أدري لماذا إختاروني تحديدًا للمنصب ، لكني وافقت على الفور ، وبمِقتضى منصبي الجديد وجدت الكثيرين يتملقوني بوضوح .. إحتفظت بهؤلاء ، ووجّهت كل جهدي لإكتساب ثقة الوزير ، ونجحت في هذا بإمتياز لدرجة أنه كان لا يُمانع مِن وضْعْ توقيعه على أي أوراق أقدّمها له دون حتى النَظَر فيها .

تَمدّد نفوذي يومًا بعد يوم إلى أن أتت الفرصة التي أنتظِرها ، جاءني أَحَدْ كِبار رجال الأعمال وطَلَبَ مِنّي مساعدته للحصول على قطعة أرض كبيرة بالطريق الصحراوي بثَمَن بخس .
ولأن هذه الأرض مِلك الدولة ، الدولة التي سَرَقت أموال عائلتي منذ خمسين عامًا ، لذلك وَجَبَ عليّ مُساعدته مع الحصول على المُقابل بالطبع .. هل أخطأت في ما فعلت ؟ .
جاوبتني "سوكا" وهى تدفع الدُخان مِن فمها :لا واللهِ .. عَدّاك العيب يا عم "حمدي" .
منحتها إبتسامة مُمتنّة وإستطردت .. تمّت الصفقة في هدوء لكن بخطأ واحد للأسف ، وهو أني تجاهلت أحد الكِبار الذي كان يجب ترضيتهم ولم أُراضيه إستنادًا إلى قوة علاقتي بالوزير نفسه ، سعى هذا الشخص خلف الموضوع حتى عَثَرَ على دليل ثم أبلغ النيابة والصحافة .
في أيام معدودة وجدت كل ما بنيْتَهُ ينهار ، زوجتي أخذت بناتي وسافرت بدون وداع لـ "ألمانيا" ، وهى كانت راغبة في هذا دائمًا لكني كنتُ عائق أمامها ، وهن كن جاحدات حتى قبل الرحيل ، رغم ذلك نجحت في تحويل بضعة ملايين مِن الدولارات إلى "ألمانيا" قبل سقوطي ، ثم تركت بضعة ملايين مِن الجنيهات في أحد البنوك ليصادروها ، إنما الجزء الأكبر مِن الثروة قُمت بدفنه في أرض زراعيّة، هذه الأرض عِبارة عن ثلاثة أفدنة وهى ما ورثتهُ عن أبي الذي بدوره ورثها عن جدّي ، تخيّلوا الجد يملك ألف فدان فيكون نصيب أحد أحفاده ثلاثة أفدنة .. أيّ ظلم هذا !! .
مد "خالد" يدَهُ وأَخَذَ سيجارة محشوّة ثم أشعلها قائلا :
- كفاية تبرير للسرقة بقى يا "حمدي" إنت مِش قاعد مع ملايكة عشان كل شِويّة تأكّد إنك شريف
نظر "بيبو" إليهِ قبل أن ينفجر ضاحكًا وهو يقول :
- يعني إنتَ قاعد ساكت مِن الصُبح ولمّا تتكلم تقوم حادِف طوب على الراجل كده !! .

رد "خالد" ساخرًا :

- كان يقدر يرفع قضيّة ويرجّع أرضه زي ما كل الناس عملت .. بس هو إللّي حابب السرقة .

كتمت بصعوبة رغبتي في الرد عليه لحرصي على إستمرار حالة الإنسجام الموجودة ، وعامةً ما فائدة إقناع لصوص بأن هناك ما يُسمّى شرف ، فما بالك إذا كانوا لصوص ومساطيل أيضًا .

لذا تجاوزت هذه النقطة مُستطردًا .. بعد ما دفنت ثروتي ، ذهبت إلى الرجل الذي يستأجرها ، منحتَهُ مبلغًا كبيرًا مِن المال دون أن أخبره بأن هناك كنز مدفون في الأرض لا يعلم مكانه أحد سِواي ، إختبأت عنده وإئتمنته على نفسي لكن الوغد باعني وقام بتسليمي ليظهر بصورة الرجل الوطني في الفضائيّات التي تهافتت على التصوير معه ، إنما أنا أعلم جيّدًا أنه ما سلّمني إلا ليضع يَدَهُ على الأرض ، بالضبط كما فعل أجدادهُ مع جدّي .

بالفعل تم إلقاء القبض عليّ ومُحاكمتي في قضيّة كانت وقتها حديث الساعة ، قضيّة رجل نَجَحَ في إسترداد ما سُرِقَ مِنه ، رجل نجح في إثبات أن ما ضاع حق وراءهُ مُطالِب .

رجل إسمه "حمدي كامل أباظة" .

ـ ٥ ـ

بعد الإنتهاء مِن قصّتي راقبت عيونهم ،وجدت التأثّر واضحًا في عيون "سوكا" أو ربما توهمني بذلك ، اللامبالاة مُرتسمة على وجه "بيبو" ، أمّا "خالد" فصرّح مباشرةً بعدم الإقتناع ، في الواقع أنا غير عابئ بشعورهم ولا يهمني مِن قريب أو بعيد فهُم يساعدوني مِن أجل المال ولن يفعلوا مِن أجل شيءٍ آخر ، نظرت لـ "بيبو" ثم "سوكا" سائلا : ها.. مين عليه الدور يقلع ؟ .

ردّت "سوكا" بخلاعة : واللهِ يا عم "حمدي" إحنا بنحب نقلع مع بعض .

أطلق "بيبو" ضحكة عالية وهو يعبث في شعرها قائلا : ممكن أقلع أنا الأوّل يا قلبي .

غمزت بعينها : إقلع يا وحْشْ .

أشعل "بيبو" إحدى سجائرهُ ثم إعتدل في جلسته مُمسكًا السيجارة بيمناه، أمّا يُسراه فمُستمرة بالعبث في شعر "سوكا" ، سَرَح لحظات قبل أن يقول بروحهِ المرحة :

- في البداية لازم الكل يبقى عارف إن أنا الذي نَظَرَ إللّي مايشوفش إلى أدَبي وحتى الأطرش سَمَع كلامي ولامؤاخذة .

هزّ "خالد" رأسَهُ مُتعجبًا ، في حين حاولت تنبيههُ أن كفاكَ عبثًا بالتراث، لن يُسامحك المُتنبّي أبدًا عما تفعلهُ في أبياتهِ الشعريّة ، لكنه إستطرد بعد ما كسى وجهه بجديّة مفاجئة قائلا :

- ركزوا بقى يا جماعة ،عشان هتسمعوا قصة أجدع مِن قصة "الهلالي" .. بَس يارب تفهموها .

منحنا إبتسامة ساخرة قبل أن ينفث دخان سيجارته بكثافة ويحكي .. لا أحَد يستطيع إختيار إسمَهُ أو أهلهُ ، لِذا رغمًا عنّي وُلِدت لأب لا تلقى توسلات كل الحكومات بتحديد النسل لديهِ أيّ إهتمام ، تزوّج إمرأتين

وأنجب إحدى عشر طفلا ، أربعة إناث وسبعة ذكور ، ولا أدري لماذا هذا البذَخ الغير مُبرّر بالرغم مِن كونِهِ عامل بِناء يقتات اليوم بيومه .
شببت فوجدتني أعيش في شقة غرفتان وصالة بجزيرة الورّاق ، ثم ضحكَ بشدّة وهو يقول :
- أبويا بلا فخر كان مِن أوائل سُكان العشوائيّات في الورّاق .
ثم أطفأ سيجارتهُ بعصبيّة وعاد إلى وجومِه .. تخيّلوا معي شقة بهذا الحجم تعيش بها أسرة بهذا العدد .. كيف تكون الحياة فيها ، مِن الطبيعي إذن أن تعُمّ الفرحة أرجاء البيت إذا غاب أحد أفراده وقضى يوم أو إثنين خارجه ، لأنه بهذا قد تفضّل مَشكورًا بإفساح مكانًا لفرد آخر .
مع وصولي سِن العاشرة قرّر أبي أن يكتفي بوصولي للصف الرابع الإبتدائي ، فأنا هكذا صِرتُ مُتعلّمًا وأستطيع أن أُفُكّ الخط ببراعة ، لِذا أخرجني مِن المدرسة وزجّ بي في ورشة لتصليح أبواب السيّارات تابِعه لصديق له.
لكن يبدو أن أبي لم يكن بارًا بأصدقائه ، فقد كان صاحِب الورشة يتلذذ بإهانتي وإيذائي نفسيًا وجسديًا ، مما إضطرني أن أتركه ليتلقفني أحد زبائنه ويصطحبني للعمل معه في مزرعته .
كانت هذه فرصة العُمر لِمَن في نفس ظروفي ، يكفي أني سأنام فاردًا ساقيّ وأن أتقلّب في الفراش دون أن يصفعني أحد أشقائي .
بالفعل ذهبت معه لأكتشِف أن هذه المزرعة ما هى إلا مُعسكر إعداد كوادر مِن اللصوص ، هناك مُدربين في النشل ، وأيضًا من يقوم بتعليمك فنون القتال وإستعمال السلاح الأبيض لعمل مشروع بلطجي ، كذلك يوجد قِسم للهجّانة .. بعد مروري على كل هذه الأقسام فضّلت الإلتحاق بقسم سرقة السيّارات لأن عملي السابق مَنحني خبرة لا بأس بها في هذا المجال .
بعد فترة ليست بالقصيرة أنهيت دراستي النظريّة ووجب عليّ نزول الشارع للتطبيق العملي .

في البداية إقتصر دوري على مُساعدة المعلم سواء في جذب الانظار بعيدًا عنه أو تأمين المنطقة ، شيئًا فشيء أصبحوا يعتمدوا عليّ ويثقون في قدراتي وكان رأي الجميع أني موهوب بالفطرة .
لكن كان هناك بعض التحفظات على طريقتي في العَمَل ، أبرزها إتهامي دائمًا بالطيبة الزائدة ، ذات مَرّة رفضت سرقة سيّارة كانت مُتاحة لأني لاحظت أن صاحبها مُعاق فإتهمَني المعلم بالبلاهة ، وفي مرّة أخرى تمكنت مِن سرقة سيّارة بالفعل وبينما أفتشها وجدت رخصتها عليها حظر بيع لأنها تابعة لشركة ، إذن قائدها ليس صاحِبها وإنما سائقًا عليها ووجدت فيها صورة لقائدها مع زوجته وأطفاله ، شعرت أنهم أسرة بسيطة تكافح لتعيش ، فقررت أن أتركها بمكان قريب مِن مكان سرقتها ليعثر عليها قائدها بسهولة .. يومها أوسعني المعلم ضربًا وتوبيخًا .
صَمَتَ "بيبو" لحظات ثم أطلق زفرة حارقة قبل أن يُكمل .. عمَلت في المزرعة كمحترف لفترة تجاوزت الثلاث سنوات ، كنت أسرق السيّارة ثم أتجه بها إلى ورشة ليتم تقطيعها أو تزوير ملف لها وإعادة بيعها في مُحافظة أخرى ، أنا عادةً لا أهتم بمصير السيّارة بعد إيداعها الورشة ، فقد كنت آخذ أجري على حَسَبْ نوع السيّارة وحالتها .
ولأن دوام الحال مِن المُحال ، فقد قبضت الشرطة ذات يوم على أحد كِبار صبيان المعلم وإعترف بكل شيء ، وجدتهم يُداهموا المزرعة وأخذوا كل مَن فيها .
في البداية نفيت كل التُهم المُوجهة إليّ ، لكن بعد أن قام الضابط بتعليقي عاريًا وكهربتي إضطررت أن أعترف بسرقة سيّارتين فقط مِن أصل سبعة محاضِر سرقة مُقيّدة ضد مجهول ، إعترفت لأتخلّص مِن التعذيب وأيضًا لآخذ عِقابي على ما إقترفت يداي فعلا ، لكن الضابط قال :
- يعني وحياة أمك سرقت العربيّتين دول بَس ، طيّب الخمسة الباقيين مين إللّي هيشيلهم ؟ .
صرخت مُتوسلا :

- والله ما ليّ دعوة بالعربيات التانية يا باشا .. وربّنا ما اعرف عنهم حاجة .

طبعًا لو سَمِعَ أحد الآذان في "مالطا" لسَمِعَ الضابط كلامي ، في النهاية عَرضَني على النيابة مُتهمًا بكل قضايا سِرقة السيّارات في دائرته ، عبثًا حاولت إثبات براءتي مِن .. .

قاطعه "خالد" بهدوء :

- يعني يا "بيبو" إنت طول فترة شُغلك .. سرقت العربيّتين دول بَسْ !! ، ما إنتَ أكيد سرقت عربيّات تانية غير إللّي في المحاضر ، ويمكن أكتر مِن خمسة كمان .. مِش كده ؟ .

إنعقد حاجبا "بيبو" بغضب لحظات ، ثم عادت إبتسامتهُ وهو يقول : هوّ يعني كان حد مَسَكني في العربيّات التانية ، ليه أحاسب على مشاريب ماطلبتهاش .. بقى بالذمة ده يرضي ربّنا ؟ !! .

ربتت "سوكا" على كتفهُ بحنان وهى تقول : أبدًا واللهِ يا بيبي ، حسبيَ الله ونعم الوكيل في الحكومة الظالمة ، شُفت أهو ربّنا إنتقم منهم والثورة قَضت عليهم .

نظر لها كراهِب في محراب : ربّك كبير يا قلبي .

أيّ جنون هذا ، هل يُصدقان نفسيهما لهذه الدرجة ؟ كتمت مشاعري بصعوبة طالبًا مِنه أن يُكمِل وبالفعل إستطرد .. أخذت حُكم بالسجن خمس سنوات ، قضيت منهم ثلاث سنوات وتِسعة أشهر ثم خرجت لحسن السير والسلوك ، إنما في الحقيقة خرجت أسوأ في السلوك وأبعد ما يكون عن حُسن السير ، خرجت بعد أن نجحت في التعلّم مِن خبرات كبار المجرمين والقتلة ، لم أهدر فترة السجن عبثًا ، لكن إستفدت منها لرفع مستواي .

هزّت "سوكا" رأسِها بإقتناع : يا سلام عليك يا بيبي .. مؤسسة والله .

منحها إبتسامة ثم إسترسل ..بعد خروجي عُدْتّ لمزاولة مهنتي التي لا أُتقن سِواها لكن بحذر أكبر ومهارة أكثر ،قضيت أربعة أعوام نفذت فيهم الكثير مِن العمليّات الناجحة وحصدت مبالغ كبيرة .

وفي يوم أسوَد كنت أترقّب أي فريسة بالقُرب مِن أحد مولات مدينة نصر ، رأيتُ سيدة تنزل مِن سيّارتها وتدخل المول مُسرعة ، لفت إنتباهي أن زجاج السيّارة غير مغلق بالكامل ، في لحظات كنت أقودها مُنطلقًا على طريق الأتوستراد ، فجأة سمعت صوت غريب في المقعد الخلفي .
نظرت لأجد طِفل نائم عُمرهُ لا يتجاوز العامين ، أُسقط في يدي تمامًا ، لا أدري ما أفعل به ، لو أخذته معي إلى الورشة فأنا بهذا أكون قد قرّرت لهُ حياة تُشبه كثيرًا حياتي ، وإذا تركته في الشارع فحتمًا سيلقى نفس المصير .. إن لم يكن أسوأ .
إتخذت قرار العودة بإتجاه المول لتجده أمه بسرعة ، عُدت بحذر لكن لسوء حظي كان الطريق مزدحم جدًا ، بغتّة سمعت صرخة بالقرب مِني.. نعم هى صرخة أُم هذا الطِفل .
في الحال إنقضّ عليّ الناس مِن كل حدبٍ وصوب وإقتادوني إلى قسم الشرطة بعد أن أوسعوني ضربًا ، فإستقبلني المُخبرين بعلقة أكثر قسوة مما عِشتها منذ قليل .
شرحت للضابط كل ما حدث ، وللأمانة هو إستمع لي بهدوء حتى إنتهيت ، توقعت أن يكتب في المحضر أني عُدت لأرد الطفل لأمه كي يُخفف القاضي الحُكم ، لكني فوجئت به يكتب في المحضر أنه أثناء مرور دوريّة الشرطة في منطقة مدينة نصر ،إشتبهنا في المُتهم الذي إرتبك وحاول الفرار لكن القوّة نجحت في إلقاء القبض عليه ، حيث عُثر معه على طِفل صغير وبإستجوابهِ أقرّ أنه إختطفه بهدف إبتزاز ذويه .
طلب مني الضابط التوقيع فإستجبت دون قيد أو شرط ، وبُناء عليه أخذت حُكم بسبع سنوات في سِجن الفيوم حيث قابلتكم هناك ، ثم أشعل سيجارة أخرى وهو يقول ضاحكًا :

- شايفين قسوة البَشَرْ ، ده بَدَلْ ما يشكروني على طِيبة قلبي يقوموا يسجنوني كده ، والنبي المعلم كان عنده حق لمّا قال إن طيبتك دي هتودّيك في داهية .

ردّت "سوكا" بدلع : إوعى تقول كده يا "بيبو" .. والنبي طيبتك دي هى راس مالَك يا بيبي .
لم يستطع "خالد" كظم غيظه أكثر مِن ذلك ، فصاح قائلا :
- طيبة إيه !!، إنتوا مجانين ولا إيه !! ، يا "بيبو" إنت حرامي ودي شغلتك إللّي إتفرضت عليك .. وده عادي ، إنما الجِنان بقى إن نقول على السرقة طيبة ! .
نَفثَ "بيبو" دخان سيجارته بكثافة ثم ناولها له : إسمع يا باشا .. مِش في دُستور بيقول .. القانون لا مؤاخذة لا يحمي المُغفّلين ؟ .
هز "خالد" رأسَهُ إيجابًا بحذر ، فإستطرد "بيبو" بحسم : ولا أنا .. أنا كمان لا أحمي المُغفّلين .
أطلت الدهشة مِن عيني وأنا أطلب مِنه تفسير هذا اللغز ، فأخذ وضع مَن سيُلقي محاضرة قائلا :
- يعني إللّي بينزل مِن عربيته ويسيبها مفتوحة .. ده مغفّل ولا مِش مغفّل ، عيّل سكران نزل مِن العربيّة وسايبها دايرة .. ده مغفّل ولا مِش مغفّل ، راجل بخيل جلدة مِش هاين عليه يركّب جهاز إنذار .. ده مغفّل ولا مِش مغفّل ،وطالما القانون نفسه لا يحمي المغفّلين ،عايزين أنا إللّي أحميهم .
ثم أنهى الحوار قائلا بحسم : يا جماعة في مَثَلَ شعبي بيقول .. إن قابلت الأعمى إسرَقْ عَشَاه ، مِش هتبقى أَحَنْ عليه مِن إللّي عَمَاه .
تبادلت نظرة التعجّب مع "خالد" ثم نظرت إلى "سوكا" فوجدتها تصيح بفرحة :
- الحمد لله .. أخيرًا دوري بقى عشان أقلَع .
وأطلقت ضحكة طويلة عابثة .

ـ ٦ ـ

قبل أن تبدأ "سوكا" حكايتها ، ذهبتْ لتطمئن على الصغيرة أولا ، سرحت بعيني لحظات مُفكرًا في قصة "بيبو" ، لا أدري لماذا راودني إحساس أن الظروف لم تكن رحيمة به ، الحياة القاسية هى التي حوّلت هذا الرجل الذي يحوي قلبه درجة مِن الطيبة لا يُمكن تجاهلها إلى ثعبان سام ، وإحقاقًا للحق كيف يتسنّى له العيش وسط الوحوش إن لم يكن على نفس درجة خطورتهم ؟ ، إن لم يكن صيّاد فسيصبح فريسة ، وإذا خَيّرت أي كائن ما بين أن يكون صيّاد أو فريسة ، فالإجابة معروفة .. لماذا نلوم "بيبو" إذن !! ؟ .

سمعت "خالد" يهمس في أذني بحسم :

- إنسى يا "حمدي" ، الغلط غلط لو ما إعترفناش به ، والصح صح حتى لو مِش بنعمله ، ناس كتير ظروفها زيّ الزِفت ، بَس مِش كل واحد بيقبل على نفسه يكون حرامي .

بالرغم مِن همس "خالد" في أُذني لكن "بيبو" سمعه لا أدري كيف ، ردّ ضاحكًا :

- حرامي حِتّة واحدة ، الله يسامحك يا باشا .. يا عزيزي كلنا لُصوص .

قبل أن يرد "خالد" عليهِ ، عادت "سوكا" وبيدها علبة قطيفة صغيرة ، إتخذت مجلسها بجوار "بيبو" ثم رمقتهُ بنظرة ذات مغزى وهى تقول : أقلَع خالص يا "بيبو" ولا رأيك إيه ؟ .

- براحتك يا قلبي .

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ثم أشارت على سجائره : طيّب يبقى نولّع بقى .

وضع سيجارة في فمها وأشعلها ، للحظات أخذت تنفث دخانها الأزرق بمهل ثم فتحت العلبة القطيفة ، أخرجت صورة قديمة وأخذَت تتأملها ،

عدّلت وضع الصورة بحيث نراها جميعًا .. والدي المعلم "شحاتة جبر الليثي" ، آخر مَرّة وقعت عيني عليه كنت في سِن التاسعة .
لمعت عينها ببريق عجيب ثم إندفعت تحكي .. أخبرني أبي ـ رحمه الله ـ أننا مِن أبناء محافظة "بني سويف" مركز أهناسيا ، لكني لا أتذكّر أي أيام لي هناك ، بينما أذكر جيّدًا يوم أتينا إلى "القاهرة" ، كنت جالسة على رجل أبي بينما أخي "محمود" جالس بجواره في القطار .
أتذكّر الوجوم المُرتسم على وجه أبي وكثرة إلتفاته حوله بإرتباك ، أتذكّر سؤالي عن أمي وجوابه وهو يكتم دموعه أنها ذهبت لخالقها .
إستأجر أبي غرفة فوق سطح إحدى عمارات وسط البلد ، كان يخرج باكرًا ولا يعود قبل منتصف الليل ، ويتركني مع أخي "محمود" عند عم "صالح" جارنا وهو رجل متزوّج ولديهِ بنتان .
أتى عم "صالح" ذات يوم وضمّني أنا وأخي بشدّة وهو يغالب دموعه قائلا .. إن أبي لن يرجع للبيت ثانيةً ، بعد ما ذَهَب روْع الصدمة حاولت بإستماتة أن أفهم ما حَدَث ، رفض الحديث في البداية لكن بعد ضغط أخبرني بالحقيقة المُرّة .. عَمّك يا إبنتي ضبطوه مع سيّدة مُتزوجة ، وعندما حاول الزوج الإمساك به ضَرَبَهُ عمّك على رأسه ضربة كانت سبب في وفاته ، بعد ذلك إشتعلت الأمور ونشَبَت معركة كبيرة مات فيها أكثر مِن شخص مِن الطرفين وكانت أمك ـرحمها الله ـ أحَد الضحايا ، وليت الدائرة توقفت عند هذا الحد ، إنما إنطلق وحش الثأر مِن مكمنه أيضًا .
ثم بدأت عينها تترقرق بالدموع .. أكّد لي عم "صالح" أن أبي لم يكن على عِلمْ بأيّ شيء عن هذا الموضوع أو ذي علاقة به ، بل كان أكثر المُتضررين منه فقد تم حرق بيته وقتل زوجته وتشريد عائلته ، كل هذا لم يشفع لوقف نزيف الثأر ، فقد عرف خصومه مكان عمله وتربّصوا به وقتلوه .

لاحت على شفتيها إبتسامة حزينة .. بعد وفاة أبي بعام لَحَقَ بهِ شقيقي ، مَرِضَ مَرَضْ عادي جدًا ، ذهب بهِ عم "صالح" للمستشفى ، إحتجزوه وبعد يومين أخبرونا بوفاته .. هكذا ببساطة .
إنسابت أوّل دمعة مِن عينيها وهى تُخرِج صورة لصبي صغير وتُرينا إيّاها .
حاولت تهدئتها مُداعبًا : إيه يا "سوكا" .. ده أنا قُلت حكايتك هتبقى فاكهة القاعدة .
فوجئت بها ترسم إبتسامتها العابثة على شفتيها قائلة بدلع :
- لا ما خلاص .. المآسي خلصت خلاص يا عم "حمدي" ، إللّي جاي بقى .. كله سِكس .
لم نتمالَك أنفسنا مِن الضحك بعد عِبارتها ، لحظات وإستطردت .. عِشت مع عم "صالح" الذي كان بالفعل صالحًا جدًا ولهُ مِن إسمهُ نصيب ، حتى بلغت السادسة عشرة فوجدته يُفاتحني قائلا :
- جالِك عريس يا "سوكا" ، راجل غني ومُقتدِر ، هو بَس عيبه إنه أكبر مِنّك حبّتين .
ثم أَخَذَ يسهب في مميّزات العريس كأنه يدفعني دفعًا للمُوافقة مع أن الأمر لا يستحق عناء إجباري ، فأنا موافقة دون ضغط ، كيف أرفض العيْش وحدي بدلا مِن حياتي عالة على الرجل وقد سمِعتُ زوجته أكثر مِن مَرّة تؤكد عليهِ إن وجودي في البيت يُمثل خطر على بنتيها لأني أجمَل منهن مما قد يؤثر بالسلب في حالة أن أقدَم أي عريس على الإقتراب مِن المنزل .
لماذا أرفض هذه الفرصة ؟ ، هل لأن العريس عمرهُ خمسة وسِتون عامًا وأنا بِنت السِتة عشرة فقط !! ، ماذا أخذنا مِن الشباب غير محاولة اللعب والتسليّة ؟ .
هل لأني سأبدأ حياتي الزوجيّة في شقة مفروشة ؟ ، عم "صالح" أكد أن العريس سيشتري شقة تمليك في غضون أشهر وسأنتقل للعيش فيها .. لماذا التَمسّك بالشكليّات ؟ .

ونظرًا لأن العريس المُرتقب لديهِ زوجات وأبناء وأحفاد أيضًا ، بالتالي لا يجوز إقامة حفل وفَرح وخلافه ، فالزيجة أصلا سِريّة ، وقد تم ترضيتي بخمسين ألف جنيه كتعويض لتنازلي عن حلم كل بنات سِنّي بالكوشة والمعازيم .. هكذا أقنعني عم "صالح" بعد أن قَبَضَ عشرين ألف جنيه .

لا أُنكر صَدمتي عندما رأيت عريسي الذي طالمَا تخيّلت وسامته وقامته وهامته الشامخة وهو على فرسَهُ الجامح الذي سيحملني عليهِ مُسابقًا الريح ، للأسف إستبدلت كل هذا بعجوز أشيَب الشعر واللحية ،يمتلك بَدَلْ العضلات المفتولة ترهّلات غير مقبولة في الصدر والبطن والأرداف.

قضيت في شقته المفروشة ثلاثة شهور بتسعين ليلة ، نَجَحَ في سبعة منهن في محاولة إثبات أنه لا زال يحتفظ ببواقي رجولته .

سرحت بعينيها لحظات ثم أكمَلت .. للأسف مِن إحدى تلك الليالي السبعة رُزِقنا بـ "سوزي" ، أخبرتهُ بالحملْ وأنا أطير فرحًا لِيُفاجئني بصفعة مُدوّية صائحًا أنه لا يريد أطفال فلديهِ العديد منهم مِن زوجاته السابقين ، وطَلَبَ منّي مباشرة التخلص مِن الجنين كشرط نهائي لإستمرار الزواج .

وافقت مُرغَمة وبدأت بالفعل أسأل عن طبيب مُتخصص في قتل الأجنة ، ولأن ربّنا كريم فقد سمعته بالصدفة وهو يُحدّث أحد أبنائهِ في المحمول هامسًا بأني لن أستمر على ذمتهِ طويلا ، هو يسايرني فقط حتى أتخلّص مِن الجنين ثم يُلقيني في الشارع .

لم يَفاتحني أبدًا بشأن الطلاق أو حتى لَمّحَ له مِن بعيد ، إذن فقد إنتوى الغدر وعليهِ تحمّل عواقبه .

لجأت إلى صديقتي الوحيدة في الدنيا .. "هدير" ، شابة أكبر مني سِنًا بخمسة سنوات ، ذات خبرة كبيرة مِن كثرة تجاربها في عالم الرجال ، والتي إنتهت بأن وَثَقَتْ في أحدهم ووقعت في غرامه ، ثم دفعت ثَمَنْ ثِقتها عملية إجهاض فاشلة أدّت إلى إستئصالها للرحم .

لجأت إليها وأنا لا أدري ما أفعله ، فنصحتني بثقة إن علينا إستخدام سلاحنا الفتّاك .. كيد النساء .
وضعنا خطة بسيطة ، أنزل أنا مِن المنزل بحجّة الترتيب لعمليّة الإجهاض ، بعد نزولي ستأتي هى كأنها تزورني ، مع دخولها المنزل في وجود كلب شهواني مِثل زوجي ، حتمًا سيحاول معها أو ستسدرجه هى ، في كل الأحوال سيتجهان لغرفة النوم ، مع رنّة صغيرة مِن هاتفها أعود مُتسللة للمنزل وأقوم بتصويرهم .. وقد كان .
نَجَحَت الخطة نجاح مُذهِل ونجحت في إبتزازه في مبلغ كبير وطلبت مِنه الطلاق أيضًا .
وكانت المفاجأة أن عقد الزواج المُبرم بيننا عقد غير رسمي ، إذن نِيّة الغدر مُبيّتة مِن البداية ، ضاعفت المبلغ وتركته يذهب لحال سبيله ومعهُ الفيديو ، ثم سَألتْ "بيبو" بخفة ظِلّها :
- مِش عارفة ليه كان خايف قوي إنّي أنزّل الفيديو على النت ، ده حتى هو ماعرفش يعمل مع "هدير" أيّ حاجة !! .
رد بخبرة رجل مُحنّك : ما هو عشان كده يا قلبي لو كان عَرَفْ .. كان هو إللّي طَلَبْ مِنّك تنزّليه.
كالعادة نجح "بيبو" بروحة الخفيفة أن يُضحكنا ، لكن "سوكا" لم تضحك وإنما سرحت بعينها لحظات قبل أن تتراقص على شفتيها إبتسامة ساخرة ، لا أدري مِن ما تسخر ؟ ، ربما تسخر مِن حاضرها ، أو ماضيها .. كل شيء وارد .
في النهاية تحدّثت بصوت مَبحوح .. عليكم أن تتخيلوا وضع إمرأة جميلة في السابعة عشرة مِن عُمرها مُطلّقة ومعها بنت رضيعة ، تعيش عند صديقتها في شقة بحي روض الفرج ، تملك بعض المال ولا تدري ماذا تفعل بهِ ، أصبحتُ كريشة في مَهَب الريح ، الجميع يُريد اللإيقاع بي بإعتباري فريسة لذيذة وسهلة ، مَن لايرغب في جسدي يرغب في مالي .. شعور سيء جدًا أن تكون مُستهدَف دائمًا .

لا أريد الحديث عن أسوأ فترات حياتي وإنما يكفي أن أخبركم أن قسوة تلك الأيّام قد حوّلتني إلى إمرأة أخرى لم أرغبها ولم أكُن هى أبدًا .
بعد فترة بدأت "هدير" تُحذّرني أن أموالنا تُستهلَك ، وإن إستمرّ الحال على ما هو عليهِ فسنضطر أن ننزل سوق الدعارة قريبًا ، وهذا ما رفضتهُ تمامًا ، فأنا على إستعداد لفعل أي شيء عدا أن أسلّم جسدي لمَن يُلقي بعض الجنيهات أسفل الوسادة قبل إنصرافه .
حاولت مع "هدير" أن نعمل في أيّ عمَل شريف ، لكن مِن الواضح أن أولاد الحلال قد أصبحوا قِلّة نادرة هذه الأيّام ، إلى أن أتتني صديقتي ذات يوم تُبشّرني أن الله دائمًا ما يُساند الضعفاء مِن أمثالنا ، وأنها أخيرًا وجدت عَمَل مُناسب يُدِر لنا دخلا كبيرًا دون أن نضطر لفعل ما نكره ، يكفي أن الأجر المدفوع هو عشر آلاف جنيه في الليلة الواحدة لكلٍ منّا .
ظهرت الدهشة بوضوح على وجه "خالد" ، في حين سألتها بترقب :
- شُغل إيه ده إللّي بيندفَع فيه عشر آلاف جنيه في الليلة ؟ !! .
إعتدلت في جلستها مُلقية نظرة على "بيبو" وكأنها تستأذنه ، إبتسم وهز كتفيهِ بلامبالاة تاركًا الأمر لها ، نظرت نحوي بتردد قبل أن تطرق بعينها أرضًا .. طبيعة عملي هى أن أقود سيّارة إلى منطقة كورنيش وسط البلد ، ثم أركن جانبًا وأتظاهر بأن عُطلا ما أصابها ، حتمًا سيأتي رجل تجري دماء الشهامة في عروقِه ليعرض خدماته وعضلاته ، أنتقي شاب وسيم وأسمح له بالعبث في السيّارة ، ثم أحاول إدارتها .. فتدور ، أعرض عليه بإبتسامة أن أوصله بالسيّارة لأيّ مكان .. فيوافق، أثناء سيرنا أُزيد عرضي بأن نتناول العشاء سويًا عند أختي في شقتها وهى لن تُمانع ثم أؤكد عليهِ ببعض الدلع أني مللت مِن العواجيز وأتوق لليلة أقضيها بين ذراعيّ شاب وسيم مفتول العضلات .. فيطير فرحًا .
نصعد أنا وهو إلى شقة حيث تكون "هدير" بإنتظارنا ومعها شخص خليجي ، تقدمه لنا بإعتباره صديقها ، لكنه في الحقيقة هذا الشخص هو صاحب العمَل كله ، هو مَن يُعطينا أجرنا نظير أن نُحضِر له شاب وسيم ثم نُحضّر العشاء لنا جميعًا ، نَضَع مُنوّم للشاب في الطعام ، بعد

أن يفقد وعيه نُجرّده مِن ملابسه بالكامل ونأخذها معنا ومعها أجرنا وننصرف ، هذا فقط هو المطلوب .
إتسعت حدقتاي دهشة مُعملا عقلي في محاولة للإستيعاب ، فلم أجد سِوى تفسير واحد ، وتأكدت مِن صِدق إستنتاجي عندما سمعت تنهيدة غضب حارة خرجت مِن فم "خالد" .
نظرت لـ "سوكا" بإشمئزاز لتواجهني بصلابة قائلة :

- في إيه يا عم "حمدي" .. بِتبُص لي بقرف كده ليه ؟ ، هو أنا كنت عملت إيه عني ؟ ! ، أنا سلّمت واحِد وسِخ لواحد أوْسخ مِنّه ، وأخدت أجرتي ، يعني لا قلعت ولا لامؤاخذة .. لبست .

دَعمها "بيبو" بالطبع قائلا :

- صح يا قلبي ، هو يعني إللّي كان طالع معاكي الشقة ده كان يطلع يصلي الفجر حاضر مثلا ! .

وصمتَ لحظة ثم أردف بضحكة مجلجلة : أهو إللّي كان طالع يعمله .. إتعمَل فيه .
طريقة "بيبو" وضحكاته ودخانه الأزرق وسَخَفْ الموقف جعلنا نضحك جميعًا بهيستيريا ، حتى "خالد" ضحك معنا لكنه أوّل مَن تماسك سائلا "سوكا" :

- مفيش حد مِن العِيال إللّي سلمتيهم راح إشتكى في القسم ؟ .

رد "بيبو" نيابةً عنها بضحكة طويلة عالية وهو يقول :

- هيشتكي إزّاي بَس يا باشا ؟ ، الشقة مفروشة بِتتأجّر بالليلة بورق مضروب ، والعربية إللّي مع "سوكا" عربيّة إيجار برضه بورَق مضروب ، وهو بيفوق مِن النوم مِش بيلاقي حاجة يلبسها أصلا ، ولا معاه فلوس أو موبيل ، كمان لا مؤاخذة مجروح جرح جامد في إحساسه .. هيشتكي يقول إيه؟!، الشكوى لغير الله مذلّة بعيد عنّك .

هزّ "خالد" رأسَهُ ثم قال : يعني عملتي فلوس حلوة مِن تسليم أهل بلدك لواحد مِن قوم "لوط" .

أطلقت تنهيدة حارة وهى تُجيب : وياريتها دامت يا باشا .. ياالله الحمد لله على كل شيء .
ما كل هذه التقوى وهذا الوَرَعْ ؟ !! ، كنت أوَد إلقاء هذا السؤال ، لكني إستبدلته في آخر لحظة بسؤال عن ما حَدَثَ بعد ذلك ، نظرت "سوكا" ناحيتي بود وإسترسلت .. لا أدري تحديدًا ما حدث ، لكن يبدو أن خطأ ما وقع مع آخر شاب أحضرته ، مِن الوارد أن جرعة المخدّر لم تكن كافية ، أو أن هذا الشاب مُتمرّس على المخدرات فكان يجب إعطائه جرعة أكبر .. المهم أنه أفاق بعد إنصرافنا بوقت بسيط ، والأسوأ أنه أفاق في منتصف العمليّة .
صمتت لحظات تحرّقنا شوقًا لمعرفة ما حَدَثْ ، ولم تتركنا طويلا ، أشارت على رقبتها بمعنى أنه ذَبَح سليل قوم "لوط" .
أوّل مَرّة أشعر بالإرتياح لسماعي عن جريمة قتل ، ليس فقط الإرتياح ، وإنّما بالسعادة أيضًا ، ها قد إنتقم أحد أبناء وطني البواسِل لشرفنا المسلوب .
إسترسلت "سوكا" بصوت يملؤه الأسى .. قامت الدنيا ولم تقعد ، هناك جريمة قتل ضحيّتها أحد الأثرياء العرب ، أدلى الشاب بمواصفاتي ومواصفات السيّارة ، وجدت الشرطة تقتحم شقتنا في روض الفرج ، إقتادوني إلى القسم وحققوا معي ، لم أذكر إسم "هدير" أبدًا في التحقيقات وأبعدتها عن أيّ شبهات ، فهى مَن كانت تعتني بـ "سوزي" في غيابي ، كذلك لم تُقصّر معي ، أحضرت لي محامٍ كبير ، وَجّهني إلى شيء واحد ، أن أنفي تمامًا معرفتي بالشاب أو الضحيّة وأنكر كل التُهَمْ المنسوبة إليّ ، خاصةً مع عدم وجود شهود إثبات ، فقد كنا حريصون على تغيير الشقق المفروشة بإستمرار ولا يوجد أيّ دليل واضح ، بالفعل تحمّلت وتحمّلت وتحمّلت ، تحمّلت بطش ضُبّاط القسم وأمنائه وحتى عساكره ، تحملت مافعلوه بي خارج الزنزانة .. وداخلها، لأكثر مِن خمسة وأربعون يومًا وأنا مُحتجزة على ذمة القضيّة .

بعد ما يئسوا مِني وفشلوا في إثبات التُهَمْ ، أخلوا سبيلي مِن سراي النيابة على ذمة القضيّة .
ثم أطلقت زفرة مُلتهبة وهى تُكمِل .. بعد خروجي قررّت أن لا أعود إلى هذا المكان ثانيةً أبدًا ، بدأت أفكر في إستثمار ما معي مِن مال والذي أصبح وفير ، دخلت في شراكة مع "هدير" وإفتتحنا كافيه بالقرب مِن ميدان "طلعت حرب" .
بعد فترة وجدت شاب نحيف وسيم يتردد على المكان بصورة مُستمرّة ، يُراقبني .. يُغازلني .. يُقسم لي أنه يُحبّني بجنون ولا يستطيع العيْش أبدًا بدوني ، أُعجبت به .. أحببته .. عشقته ، لدرجة أني كلما أراهُ تتردد في وجداني كلمات أغنية كوكب الشرق .. "إللّي شُفته قبل ما تشوفك عينيّ، عُمْرْ ضايع يحسِبوه إزّاي عليّ ".
ثم نظرت في عينيّ "بيبو" وهى تُكمل بهمس :
- واد حرّاق كده وعينيه حلوة .. إسمه "بيبو" .

_ ٧ _

نفسْ إحساسي بعد سماع حكاية "بيبو" شعرت به بعد قصة "سوكا" ، لا أستطيع الحُكم هل هى ضحيّة أم جانِية ؟ ، لكن ما يُثير حنقي هو تعاطفي معهما ، في حين أن كلاهما لم يتضامنا معي .
أصرّ "بيبو" على إحتساء القهوة قبل أن يبدأ "خالد" في حكايته ، ثم تطوّع بِلَف سيجارتين إضافتين ،أعطى إحداهما لـ "خالد" وهو يقول مازحًا : ولّع يا باشا ولّع ..عشان تِنجِلي وتِطَعْطَعْ.
أخذها مِنه وهو ينظر له بريبة ، فهذا الكَرَمْ الحاتِمي أبعد ما يكون عن أخلاقِه ، أعتقد أن "بيبو" يريد أن يُضعِف تركيزه حتى يحكي قِصتهُ بصدق ، ويبدو أن "خالد" فَطِنَ لما يدور في ذِهنهِ ، لذا أجابهُ بإبتسامة لزجة وهو يُشعِل السيجارة :
- مفيش داعي تِكلّف نفسك كل ده يا "بيبو" .. أنا إللّي عايز أحكي والله .
أطلَقَ "بيبو" ضحكة طويلة مجلجلة مع عودة "سوكا" بالقهوة ، وزّعتها علينا ثم جلست بجوارِه .
إتجهت العيون كلها نحو "خالد" الذي أخذَ رشفة مِن قهوته مُتلذذًا وهو يقول :
- بتعرفي تعملي قهوة هايلة يا "سوكا" .
ردّت وهى تُراقص حاجبيها : في حاجات كتير بعرف أعملها بطريقة هايلة .. حتى إسأل "بيبو" .
وافقها بإبتسامة ساخرة : عارف مِن غير ما أسأل .. ما إحنا بنسمع كل حاجة .
كدت أؤكد على كلامِهِ بأننا أحيانًا نرى أيضًا لكني أمسكت لساني تجنّبًا للمهاترات ، مَرّ علينا بعينيهِ كقائد يُقيّم جنوده .. "خالد محمود

الشناوي"، إبن اللواء "محمود الشناوي" صاحِب الإسم الكبير في أروقة الداخلية ، والمعروف بِحِدّته وصرامته وعدم تهاونه أبدًا مع المُخطئين .
تِلك صِفات الكل يعلمها، لكن ما لا يعلمهُ الكثيرون ، أن هذه صِفاته في المنزل أيضًا مع أولاده .
أنجب والدي شقيقي "محمد" ولحقت بهِ بعد ثلاثة سنوات ، ثم بعد سبعة سنوات جاءت "ندى" شقيقتي إلى الدنيا .. وليتها ما جاءت .
طبّق والدي كل تعاليم العسكريّة الصارمة على "محمد" ومِن بعدِهِ عليّ حتى نَجَحَ في إيصالنا لباب كليّة الشرطة ، للعِلم "محمد" حاليًا يحمل رُتبة مُقدّم ، في حين أنا كنت برتبة رائد .
لسبب غير معلوم تم إستثناء "ندى" مِن تطبيق التعاليم الصارمة ، ربما بِحكم كونها أنثى ، أو لأن ترتيبها في آخر العنقود ، لذا فقد كانت المُدللة الأولى أو للدقة .. الوحيدة ، مُنذ طفولتها وهى كل شيء في حياة أبي ، حتى أمي توارت ولم تعد تحظى بأيّ إهتمام .
دائمًا الصِدام مع "ندى" معناهُ الصدام مع والدي ، وهذا ما لم يكن أحد يتحمّلهُ ، فقد كانت تُمثّل له مصدر السعادة الوحيد يكفي أنها كانت تنجح في إنتزاع الضحكة مِنه ..وكم أن هذا لشيءٍ عسير .
بمجرّد دخول "ندى" معهد الخدمة الإجتماعيّة ــ بِشِق الأنفس ــ حتى تحوّلنا جميعًا إلى خَدَمْ عندها ــ بأمر والدي طبعًا ــ الذي لم يستجِب أو يتجاوب مع نصائح أمي ــ رحمها الله ــ وتوسلاتها بأن طريقة تربيتهُ هذه ستكون لها عواقب وخيمة ، وهذا ما حَدَثَ بالفعل للأسف .
بعد عام واحد لها في المعهد أتت لنا بشاب شكلهُ يدعو للريبة وهى تؤكد أن هذا هو فتى أحلامها المُنتظَر ، وهى لن تتفاوض بشأن الزواج مِنه وليس أمامنا سِوى أن نوافق جميعًا .
رفضنا بالإجماع لكن بعد إنفرادها بوالدي خَرَجَ علينا مُعلنًا مُوافقتِهِ ومباركتِهِ لهذه الزيجة التي لم تَدُمْ لأكثر مِن عام ، ثم حَمَلَت أختي لقب مُطلقة .

بدأت مع أخي نَضَع حدًا لخروجها مِن المنزل وتأخّرها أحيانًا ، وفي كل مَرّة تحتمي بأبي الذي إنفعلت عليهِ ذات مَرّة مذكرًا بأنها حاليًا مُطلقة وتصرّفاتها هذه ستسيء لسمعتها وسَمعة أخي المُتزوّج وسمعتك أنت أيضًا يا سعادة اللواء .. جاوبني بِصفعة على وجهى وطرد مِن المنزل ولم أرجع إلا بَعدْ ضغط شديد مِن أمي وتصعيدها بتركها المنزل في حالة عَدَم عودتي .

بَعد بضعة أشهر أتت إلينا بشخص آخر ، فوجئت أنه طبيب مِن عائلة مرموقة ، سارعنا بتقديم كل التسهيلات وأتممنا الزواج بفرحة هذه المَرّة، لكن الفرحة لم تدم كثيرًا ، أشهر قليلة مِن الزواج .. وطلّقها ، لم يتحدّث كثيرًا ، فقط أتى إلى أبي وألقى اليمين أمامه موضحًا أن علينا إبراء ذمتّهُ مِن أيّ إلتزام مادي أو أدبي ، ذلك لعدم إجباره على الحديث في ما لا نطيق سماعه .

بالطبع حاولت إعتصارها لتخبرنا عن ما حَدَث ، ففاجأتنا بمحاولة إنتحار أشكّ كثيرًا في مدى واقعيّتها ، لم تنجح تلك المحاولة في إزهاق روحها لكنها نجحت في إجبارنا على تخطّي الموقف.

بعد طلاقها الثاني ضعفُت قليلا قبضة أبي ، لكنه ما زال قادرًا على الإمساك بزمام الأمور ، في حين فرضت أنا وأخي عليها حصارًا صارمًا .

إعتبرتُ تقييدها عملا إضافيًا لم يعوقني عن النجاح والتقدّم في عملي الأصلي كضابط شرطة ، كنت دومًا مَثلا يُحتذى به ، أخذتُ رتبة رائد مُبكرًا عن كل أقراني ، إنتقلت للعمل في مديريّة أمن "القاهرة" تحت إدارة مُقدّم إسمهُ "حازم شفيق" ، رجل لا يُحب في حياتِهِ سِوى عمله.. والنساء ، فهو مشهود له بالكفاءة والحِنكة في العمل ، وأن نقطة ضعفهُ الوحيدة هى عِشقهُ الشديد للجنس الناعم ــ بالرغم مِن أن لديهِ زوجة وأطفال ــ هذا العِشق الذي قد لا يقف أمامهُ عائق ، فمَن لا تأتي بالجزرة .. تُحضرها العصا .

كوّنت معه فريق عمل ناجح حتى صار لا يُكلفني إلا بالمأموريّات التي يعجز البعض عن أدائها فقط ، وللأمانة هو ساهم كثيرًا في إعطاء البريق لإسمي عِند كبار رجال الداخليّة .
أصبَحَ إسمي له رنين وإكتسبت شهرة بأني رجل المهام الصعبة ، حتى فوجئت به ذات يوم يُكلفني بأخْذ قوّة والذهاب لإلقاء القبض على سيّدة صادر ضِدّها حُكْمْ نهائي في قضيّة شيكات بدون رصيد ، شعرتُ أن هذه المأموريّة إهانة ، هذا عَمَلْ يستطيع أي ضابط صغير إنجازها ، لكن في النهاية إمتثلت للأوامر وأخذت سيّارتي الخاصة تتبعني سيارة الشرطة وإتجهت لتنفيذ المأموريّة ، بعد دقائق أتتني مُكالمة هاتفية مِن صوت حريمي ناعم : ألو .. "خالد" باشا معايا ؟ .
- أيوة مين معايا ؟ .
- مِش مهم أنا مين ، إنتَ لكْ أُخت إسمها "ندى" .. مِش كده ؟ .
لم تُعجبني رائحة التهكّم في نبرتها ، فسألتها بخشونة : وإنتِ عايزة إيه مِن "ندى" يا روح أمك ؟
ردّت بضحكة ساخرة عالية : بالراحة بَسْ يا شَبَحْ الداخليّة وإسمع الحدّوتة دي .. والله هتعجبك .
وصمتت لحظة قبل أن تستطرد :
- مِن حوالي إسبوعين ، "حازم" باشا مُديرك إتصَل على تليفونك بَسْ كان الهاتف غير مُتاح ، فإضطر يتصِل على الأرضي ، ردّت عليه إسم النبي حارسها وصاينها صاحبة العفة "ندى" .
صرخت فيها بغضب : ما تتكلمي كويّس يا بنت الش .. .
قاطعتني بحدّة : والنبي ما تعمل راجل وإسمع الكلام المُفيد أحسن لك والله ، المُهم .. "حازم" ريّسَك وإنت عارف إنه نسوانجي قدير وصِيته مِسَمّعْ ، وأختك وإنت عارف أخلاقها وأدبَها .
ضغطت على أسناني بغيظ لكني إلتزمت الصمت بصبر ، ولم تتركني أنتظر كثيرًا وإستطردت:

- عشان ما أطوّلش عليك .. أخدوا أرقام تليفونات بعض ، المكالمات زادت ، ويا عيني نِفسِهم يتقابلوا ، هنا ظهرت المشكلة، هيتقابلوا فين وإزّاي ؟ ، ما إنت إسم الله عليك شادِد عليها جامِد في الدُخول والخروج ، وحتى لو عرفت تزوّغ مِنك ما ينفعش يتقابلوا في أيّ مكان عام ، هو راجل معروف بوساخته ، وهى برضه مطّلقة بَدَلْ المرّة .. إتنين .

لم أتمالك أعصابي أكثر مِن ذلك ، فإنفجرت في وجهها بسيل مِن السباب، ردّت بمزيد مِن التهكّم:

- بالراحة على نفسك يا باشا ، ده بَدَلْ ماتشكرني عشان بنوّرك .
- إخلصي يا بنت "....." بَدَلْ ما أعمل معاكي الغَلَطْ .
- يا عم روح إعمل الغَلَطْ مع أختك أصل زمانها دلوقت في شقة إللّي هو راجل عليها .. وعليك.
- شقة!! ، شقة إيه ؟ ، هو إنتِ مِفكراها زيّك يا "...." .

قاطعتني بتحدّي : يا سيدي إتصَل عليها هتلاقي تليفونها مقفول ، ما هو قال لها تِقفله ولو إنتَ سألتها تقول إنها كانت في مكان مافيهوش شبكة ، وإتصِل عليه هتلاقي تليفونه مقفول ، بَسْ طبعًا إنت مِش هتقدر تسأله عن حاجة ، أصله راجل عليك .. وعليها .

صوتها الواثق ومنطقيّة حديثها ألجمتني ، بالفعل "حازم" قذِر جدًا ، السؤال .. هل "ندى" وصلت لهذا المستوى مِن القذارة ؟ ، أكملت مُحدّثتي المجهولة :

- وإنتَ يا عيني طالع تجري في عزّ الحر عشان تنفذ تعليماته ، وهو زمانه بيبوس أوّل بوسة .

وإستطردت كأنها تُلقي مزيد مِن الوقود على النار : يا سلام على أوّل بوسة دي ، وبالذات لمّا تبقى الواحدة عايزة تتباس .. يا بختِك يا "ندى". وعدتها بصوت مُتحشرج بأني سأعرف طريقها ولن أرحمها ، جاوبتني بمزيد مِن السخريّة بأن عليّ تغطية لحمي العاري أولا قبل التفكير في

أيّ إنتقام ، ثم ألقت على مسامعي عنوان شقة في حي المهندسين متمنيّة لي التوفيق والنجاح ثم أنهت المُكالمة .
إتصلت بـ "ندى" فوجدت هاتفها مُغلق ، إتصلت بـ "حازم" فحصلتُ على نَفْسْ النتيجة .. إذن مُحدّثتي المجهولة لا تكذب .. وهذا يعني كارثة.
في الحال أمرت سيّارة النجدة بالعودة وإتجهت للعنوان ، الغريب أن تِلك المرأة لم تتركني لحالي وإنمّا ظلت طول الطريق تُرسل لي رسائل مُستفزّة لتشعلني ، في حين أني كنت في غِنى عن رسائلها ، فما جدوى إشعال النار في رجل إحترَقَ بالفعل ؟ ! .
سألتهُ بلهفة وترقب : عرفت مين السِت دي يا "خالد" ؟ .
هز رأسه إيجابًا بهدوء .. هذه سيّدة مِن مَن أجبرهم "حازم" على فعل ما لا يرغبون ، ولسوء حظه أنها كانت تعمل في إحدى شركات المحمول وقررت الإنتقام بالتجسس عليه .
أشعل "خالد" إحدى سجائر "بيبو" ثم عَقَدَ حاجبيهِ بغضب .. ذهبت للعنوان كالمسعور ، ورأسي يكاد ينفجر مِن التساؤلات ، هل وصل بهِ الإستهتار أن يُرسلني لعمل تافه ليخلو له الجو معها ؟ ،
كيف جرؤ أن يستدرجها حتى ـ وإن كانت عاهرة ـ دون خوف مِن رد فعلي ؟.. كيف ؟ .
وصلت أسفل العمارة ، تركت سيّارتي أمام المارة ، صعدتُ السلم طائرًا ، برصاصة مباشرة إنفتح باب الشقة ، إقتحمتها فوجدتهما جالسان في الصالة في أيديهما كوبان مِن العصير .
لم أمنحهما تَرَفْ التفسير ، لم أرى أمامي سِوى نظرات الشفقة المُتوقعة على الإسم الكبير الذي دنّست أختهُ شرفه في الوحل ، لم أسمع غير ضحكات السيّدة المجهولة الساخرة ، لم أتمكن مِن السيطرة على يدي وهى تضغط الزناد مرّتان ، لتخرج رصاصتان متتاليتان إخترقتا رأس كلٍ منهما ، لم أُبالِ وأنا أخرج مِن العمارة أمام عشرات الشهود ثم أذهب بكامل إرادتي لتسليم نفسي .

دار "خالد" بعينَه مارًا على "بيبو" المشدود تمامًا ، في حين قفزت نظرات التعاطف مِن عينيّ ، أمّا "سوكا" فهزّت رأسها بأسى وعلى وجهها علامات الحيرة .
إستأنف "خالد" حديثهُ سريعًا .. إتصلت بشقيقي الذي هَبّ لنجدتي لكن الوضع كان أصعب مِن تخطّيه ، هذه جريمة قتل مُكتملة الأركان ضحيتها ضابط مِن أهم ضبّاط الداخليّة ، والأهم مِنهُ الآن هم أقاربه المنتشرين في كل مكان والمُطالبين بالقصاص لإبن عائلتهم ، أضِف إلى ذلك أن والدي إنقَلَبَ عليّ تمامًا بعد أن قتلت دُميتَهُ الصغيرة .
حاول زملائي بِكُلّ السُبُلْ طمسْ ملامح الجريمة ،لكن دون جدوى، أقصى ما نجحوا في الوصول إليهِ مِن دفوع ، هو إثبات عدم نِيّة سَبْقْ الإصرار والترصّد ، وإظهار الجريمة أنها قضيّة شَرَفْ .
لم يقتنع القاضي بكل هذا ، وإستمَعَ إلى مُمثّل النيابة الذي أشار بأن الجريمة حَدَثَتْ في الصالة وليست في غرفة النوم ، وأن المجني عليهما كانا مُرتدين ثيابهم بالكامل ولا توجد شُبهة زِنا ، ولا يُمكن أبدًا إعتبار وضعْ تناول العصير على أريكة بأنه وضعْ مُخِلّ بالآداب ، ويجب توقيع أقصى درجات العِقاب على المُتهم وجعلهُ عِبرة لِمَن يعتبِر .
قاطعته "سوكا" وهى تَمُطّ شفتيها بإعتراض :
- والنبي ده كلام ناس عاقلين ! ، ما كلنا عارفين إن العصير في الصالة ده مرحلة إنتقاليّة قبل الحشيش في أوضة النوم ، يعني بيطالِب بتوقيع أقصى عقوبة عشان وَصَلت بدري نُص ساعة !.
لم يَرُقْ تضامنها لـ "بيبو" الذي نَظَرَ إلى "خالد" بلامبالاة : ما تزعلش مِنّي يا باشا ، إنت برضه كان واجِب تِتقل شِويّة ، الحِوار ده كان مُمكن يخلص عند المأذون .. ويا دار ما دخلِك شَر .
نَظَرَ "خالد" إليهِ نظرة طويلة ثم رد ببرود : أبويا قال نفسْ الكلام الخايب ده ، أنا أكتَر واحد عارف "حازم" بيفكّر إزّاي ، هو لو قَدَرْ يطلع مِن الموقف ده سليم ، أوّل حاجة هيعملها إنه يخلص مِنّي .

حاولت تجاوز هذه المنطقة الشائكة بأن سألتهُ :وحَصَلْ إيه بعد كده يا "خالد" ؟ .
لاحت إبتسامة حسرة على شفتيه :أخدت خمستاشر سنة في سِجن "الفيوم" .. عشان أقابلكم هناك .
ثم هبّ مِن جلسته مُتجهًا لغرفتنا مُستطردًا .. عام كامل في السِجن ماتت فيهِ أمي كَمَدًا وقهرًا ، ولم يأتِ أبي لزيارتي أبدًا ، والأكثر أنه مَنَعَ شقيقي مِن زيارتي وهدده بتوزيع ثروتنا كلها على دور الأيتام إذا عرِف أنه زارني أو ساعدني ، فهو لا زال اللواء "محمود الشناوي" الذي لم يفقد كامل بريقَهُ بَعْدْ ، وتفضّل مَشكورًا بترك الحريّة لشقيقي في زيارتي لكن بعد موتِهِ ، لذلك إبتعد أخي عنّي مُرغمًا وأقصى ما إستطاع عمَلهُ هو أن جعل المُحاكمة سِريّة وأبعدَها عن الإعلام .
وَقَفَ عند باب الحجرة ثم إستدار ببطء : مبسوط يا "حمدي" .. فرحان كده بعد ما قَلَعنا كلّنا .
كعادتها "سوكا" فاجأتنا بإحدى ضحكاتها العابثة الرنّانة وهى تنظر لـ "بيبو" قائلة بدلال :
- والنبي حتى بعد ما قلعوا .. برضه إنت لِسّه البريمو يا نجم .
ودون أيّ إعتبار للمآسي التي سُرِدَتْ منذ قليل ، وجدته يحملها كطفلٍ صغير مُتجه لغرفتهما قائلا بضحكة عالية : آه يا قلبي ياللّي دايب .

الفصل الثالث

ـ ١ ـ

مَرّ شهر على ليلة المُصارحة التاريخيّة ، ثِمة بعض التغيير قد حَدَثَ في علاقتنا المشتركة ، لم أحدد بالضبط إن كان للأفضل أم للأسوأ .
إنخفضت نسبة الريبة بين "خالد" و"بيبو" وإن كان هذا لا يعني أن الحَذَرْ قد زال ، لازالت هناك نظرات شكْ ألمحها في العيون وخاصةً "خالد" الذي لم ينسى كونهُ ضابطًا سابقًا بينما نحن في نظرِهِ مجرّد حفنة لصوص .
ذات ليلة تحدّثت معهُ على إنفراد مُتسائلا عن رأيَهُ الشخصي في قضيّتي، فأجابني ببرود :

- بُصْ يا "حمدي" ، زيّ ما قُلتْ لك قبل كده .. الغَلَطْ غَلَطْ ولو ما إعترفناش به ، والصَحْ صَحْ ولو مابنعملوش ، أبوك الله يرحمه كان يقدر يرفع قضيّة يرجّع بها أرضه وخاصةً إن أيّام "السادات" كانت العمليّة مفتوحة على البحري .

قاطعتهُ بحدّة : رفعنا قضيّة وخسرناها علشان شِويّة لخبَطَة في الورق والإجراءات .

- خلاص يبقى مِش ذنب البلد بقى إن كان معاك مُحامي عبيط .

ثم أخَذَ يُدافع بإنتماء شديد عن الحقبة الناصريّة وكيف أنها كانت الفترة الوحيدة في تاريخ "مصر" الحديث التي إهتمت فيها الحكومة بالفقراء فعلا وليس قولا ، وإستشهد بيوم وفاة "عبد الناصر" وما فعلتهُ الجماهير لموت زعيم مهزوم في حرب ، ما بالك لو كان مُنتصرًا .

لم أرغب في الدخول معهُ في جَدَلْ سياسي عقيم ، لكن رميتَه بنظرة بالتأكيد فَهِمَ معناها ، فهوَ يُجيد ببراعة قراءة لغة العيون ، نظرة معناها أن كيف لمثل هؤلاء أن ينتصرون ؟ ! .

على الرغم مِن خِلافنا السياسي الواضِح إلا أن حماس "خالد" في جمع المعلومات عن ثُعباننا الغامض "محمد التاجي" لم يهدأ ، إذ بِهِ يعود ذات يوم للمِنزل وعلى وجههِ نفس الوجوم الذي نَزَلَ به قائلا أنه عرف عنوان الهدف ، ثم ألقى جسدهُ على أقرب مقعد وأطلقَ زفرة حارة :

- "التاجي" عايش في فيلا في المُقطّم ، فيلا كأنها قلعة ببوابتها وأسوارها وحراسِتها ، حاجة كده عايزة فرقة صاعقة عشان تقتحمها .

تبادلنا نظرات الترقب ثم تحدثت ببساطة : خلاص .. يبقى مفيش داعي نِتعب نَفسنا ونروح له ، إحنا نحاول نصطاده بَرّه ، بَس ده هيحتاج إننا نراقبه كويّس عشان نعرف خط سيره .

هز "خالد" رأسه إيجابًا وقال أنه بالفعل كلّف شخص بمراقبته ، ثم أشعل سيجارة قائلا بغموض :

- على فكرة أنا ملاحظ إن أنا بَس إللّي شغّال ، مِش عارف بصراحة إيه دور باقي الفريق ؟ .

ردّت "سوكا" بضحكة عالية وهى تضع أطباق الغداء على المنضدة : أنا إللّي بطبخ للفريق .

أكمَل "بيبو" ببساطة ناظرًا إلى "خالد" :

- مِش بَسْ بتطبخي يا قلبي ، ده إنتِ كمان مِخَبيّانا في بيتك .. هى دي شِويّة ! .

وأشار نحوي كاسيًا صوتِهِ بسخرية لاذعة : وعم "حمدي" هو إللّي هيدفع للفريق .

ثم وَضَعَ يدهُ على صدرهِ قائلا بزهو : وأنا بقى الفِرْوِدْ إللّي بيخلص الماتش بعد الدقيقة تِسعين .

فتجاوبهِ "سوكا" بضحكة طويلة عابثة : إسم النبي حارسك وصاينك يا بيبي ، وربّنا ما في مِنّك .
بالرغم مِن أني كنت سبب التقارب النِسبي الذي حَدَثَ في الفترة الأخيرة، إلا أني أشعر بالراحة كلما رأيت تنافرًا يحدث ، فأنا أخشي أن يتفقوا بشكل كامل على شيءٍ ما ، هذا لن يكون في صالحي أبدًا ، يا لهُ مِن موقف شديد التعقيد يحتاج توازن كامل في المعاملة .
كأنّ لديّ طفلان أحاول دائمًا معاملتهما بالتساوي ، أو أن أجعل رضائي حافزًا يتنافسان عليه .
وتطبيقًا لهذه الطريقة فقد إنتهزت خروج "خالد" ذات مَرّة مِن المنزل ولم يُصرح كعادته أين وجهته ؟ ، وجدت "بيبو" جالسًا في الصالة يحتسي كوب شاي وبِفمَهُ سيجارة مُنهمِكًا في قراءة مَقال بإحدى الصُحُفْ اليوميّة ، ألقيت عليهِ التحيّة ، ردّها دون أن يرفع عينه عن الجريدة ، سألتَهُ عن "سوكا" ، أجاب أنها عند "هدير" لتطمئن على "سوزي" .
نَعَمْ "سوكا" أخبرتني أنها تذهب لـ "هدير" كل فترة لتطمئن على إبنتها.
تساءلت داخلي بدهشة ، هل الأفاعي العادية لا تحب صِغارها وتتركها لأصدقائها أم أن الجحود يقتصر على أفاعي البَشَرْ فقط ؟! ، هل رغبة "سوكا" في الإستمتاع بوقتها مع "بيبو" تفوق رغبتها في رعاية إبنتها؟!، في النهاية لم أكترث كثيرًا بتلك الجزئيّة ، أو لماذا لم يتزوّجا حتى الآن مع أن كلاهما يتنفّس هواء الآخر ؟ ، يبدو أنني بين فصيلة يصعب جدًا إستنتاج أفعالها .
دخلت المطبخ متناولا أي طعام وقعت يدي عليهِ ثم نظرت إلى "بيبو" فوجدته لازال مُنكبًا على الجريدة كأنّه مُضارب في البورصة يُتابع بشغف أخبار أسهمه ، لم أستطِع كبح فضولي فسَألته :
- إنت بتقرا إيه بإهتمام قوي كده يا "بيبو" ؟ .
ظل لحظات يقرأ بإهتمام وفجأة ألقى الجريدة جانبًا قبل أن ينظر إليّ قائلا بتعجّب :

- واحد مِن الجماعة المشايخ كاتب صفحة بحالها عشان يقول إن حرام نِعيّد على المسيحيين في أعيادهم وإن إللّي يعمل كده يبقى كافر شرعًا .. كافر وِشْ كده .

وصمت لحظة ثم إستطرد بتعجّب أكثر :

- يعني لو إتجوّزت مسيحية ده حلال شرعًا ، إنما لو عيّدت على مراتي في عيدها أبقى كافر شرعًا .. هى الناس دي بتعمل دماغ إيه ؟! .

وافقتهُ بإيماءة مِن رأسي ثم إبتلعت لقيمة وأنا أسأله :

- "بيبو" .. أنا شايفك بقالك كام يوم مانزلتش مِن البيت ، ودي مِش عادتك .

رد بإبتسامة ساخرة :

- خلاص يا عم "حمدي" أنا بطّلت شغل ، قررّت أعتزل وأنا في قِمّة مجدي وفي قمّة عطائي .
- تُبْتْ يعني الحمد لله .

إكتسى وجههُ بِجدّية مُفاجئة وهو يقول :

- أنا ماعملتش ذنب عشان أتوب يا عم "حمدي" ، أنا كنت بشتغل وهو ده شغلي أعمل له إيه ! ، أنا بَسْ قررّت أسوّي معاشي وأغيّر مجال تخصصي .

ثم نظر في عيني مُستطردًا بحسم :

- على فكرة لو رَجَعْ الزمن بيّ أنا هشتغل نَفْسْ الشغلانة ، وإنتَ لو رَجَعْ الزمن بك هتسرق نَفْسْ المبلغ ويمكن أكتر .

منحتَهُ إبتسامة لأخفي بها ضيقي وحنقي .. حتى أنت يا لص السيّارات الظريف تراني سارقًا ، لا عجب إذن إذا كان "خالد" أيضًا يراني كذلك.

هززت كتفي بلامبالاة ، ما مشكلة إن كان قاتلا قتل أختهُ ورئيسهُ في العمل يراني مجرمًا .. مثله.

ومِن الطبيعي أن رجلا يسرق مُنذُ نعومة أظافره أن يراني سارقًا .. مثله.

المُثير للحنق فعلا إن الوحيدة المُتعاطفة معي هى "سوكا" مع أنها إمتهنت عن طيب خاطر أقدَم مهنة عرفتها البشريّة .. القوادة ، ليتها أصبحت قوّادة بمعناها الحرفي وهو تسهيل الزنا ، إنما أصرّت أن تَضَعْ لمستها عليها بأن سهّلت الشذوذ .
في النهاية أنا لا أُبالي بهم جميعًا ، ما يشغلني حقًا هو إستعادة ثروتي ، بعد ذلك كيفيّة تأمين نفسي مِن غدرهم .
ثم المشكلة الأكبَر وهى ماذا سأفعل بالثروة وحدي ؟ ، فقد ألفتهم بكل مساوئهم المُتعددّة .. لذا يجب وضع إجابة واضحة للسؤال الصعب ، كيف أعيش بدونهم .. في حالة إن لم يغدروا بي ؟ .

_ ٢ _

إستيقظت على هزّات خفيفة في كتفي مع صوت "سوكا" الناعم :
- عم "حمدي" .. إصحى يا عم "حمدي" .
فتحت عينيّ ليُطالعني وجه "سوكا" الملائكي ، كَمْ جميل أن تفتح عينيك فترى وجه مثل هذا ، خاصةً عندما تكون صاحبته ترتدي منامة نوم حمراء حريريّة تكشف أكثر بكثير مِن مَا تخفي .
للأسف لم تتركني كثيرًا أُمتّع عينيّ بهذا الجمال ، عاجلتني قائلة :
- والنبي يا عم "حمدي" عايزة أَهوّي الأوضة وأروّقها قبل ما "بيبو" يرجع .
تثاءبت مَنسائلا : هوَّ "بيبو" مِش هِنا ؟ .
هزّت رأسها نفيًا وهى تفتح النافذة على مِصراعيها :
- خَرَجْ يقضّي مصلحة ، و"خالد" برضه خَرَجْ وراه على طول .
فورًا بدأ الشيطان اللعين عَملهُ بالتلاعب برأسي ، صبغت صوتي بلهجة ماكِرة قائلا :
- يعني ينفع يا "سوكا" نبقى لوحدنا في البيت ، وتصحيني بقميص النوم العريان خالص ده ! .
إستدارت نحوي ناظرةً بدهشة ، قبل أن تُطلق ضحكة رنّانة :
- قوم يا عم "حمدي" خُدْ حبّاية الضغط إللّي ع الريق .. قوم قوم ده إنت ماشي بالعلاج .
كأنها لطمتني بلوح ثلج بارد على وجهي إنتفضت مُتجهًا للحمّام تلاحقني ضحكاتها الساخرة قائلة:
- إوعى تتكعبل في السجادة يا عم "حمدي" .. قال قميص نوم عريان قال ! .

حاولت أن أقول شيئًا فقط لتوقف ضحكاتها الساخرة لكني لم أستطع ، دقائق قضيتها تحت الماء قبل أن أخرج لأجدها أعدّت الإفطار في الصالة ، أمّا هى فكانت مُنهمكة في تنظيف الغرفة .
جلست أتناول طعامي راجيًا مِن الله أن تتجاوز هفوتي ، بعد قليل جاءتني وهى تراقص حاجبيها :
- والنبي ريحتك حلوة بعد ما إستحمّيت يا عم "حمدي" .
للمرّة الثانية أعجز في أن أقول شيئًا ، تلك الأفعى لديها كاريزما خارقة، عاجلتني قائلة :
_ إنتَ مش بترُدْ عليّ ليه ؟ .
ثم مرّرت أصابعها في شِعري مُستطردة بنعومة ساخرة : إنتَ زِعلت مِنّي يا بيبي ؟ .
كدتُ أصرخ في وجهها طالِبًا أن تتركني وحدي ، لكن الله وفقني أن أدير الحديث حيث لا تتوقع هى ، نظرتُ في عينيها قائلا بإبتسامة : إنتِ ليه ما إتجوّزتيش "بيبو" لحد دلوقت ؟ .
ألقيتُ سؤالي على أمل أن ينجح في إنهاء ضحكاتها الساخرة وعَبَثِها بأعصابي ، وأيضًا لأني لم أجد لهُ أبدًا إجابة .
فاجأها السؤال بالفعل ، صمتت برهة ثم عَقَدَت حاجبيها قبل أن تجلس أمامي .. مِنّك لله يا عم "حمدي" ، كثيرًا ما سألت نفسي هذا السؤال .. لماذا لم يطلب "بيبو" الزواج مِنّي ؟ .
أشاحت برأسها وهى تأخذ سيجارة مِن علبة مُلقاة أمامها ، أشعلتها وقد كسى الحُزن وجهها .. لا أجد لهذا السؤال إجابة ، إنتظرت كثيرًا أن يعرض عليّ الزواج لكنه لم يفعل ، وكَم تمنيّت أن يفعل ، وبما لأني أعرفه جيّدًا ، فأنا مدركة إستحالة إجباره على شيء ، لذلك خشيْت أن أعرض عليه الزواج ، لأنهُ لو رفض فسيجرحني جرح لا قِبَلَ لي بمداواته ، وستمنعني كرامتي مِن الضغط عليه وحتى إن لم تمنعني فأي ضغط معناه أن يهجرني ، وهذا ما لا أطيقهُ ولن أتحمّله .

تركتها لحظات تُدخن سيجارتها وهى تُحاول مُغالبة دموعها ، حتى هزمتها أخيرًا ونجحت في الفرار مِن مقلتيها ، مددت يدي بهدوء ومسحت دموعها قائلا :

- ما تزعليش يا "سوكا" ، أنا عندي حل للموضوع ده .. قولي يارب وإن شاء الله خير .

نظرت لي بدهشة على أَمَلْ أن أستطرد ، قبل أن أتكلم سمِعنا صوت طرقات على الباب ، فقالت:

- ده أكيد "خالد" .. لو "بيبو" كان فتح بالمفتاح .

إتجهت بسرعة لغرفة نومها وإرتدت روب فوق قميصها ، حقيقةً لا أدري ما جدوى إرتدائه فهو قصير وشفّاف ؟! ، قبل أن تفتح الباب أشارت إليّ مُحذِّرة :

- أنا مِش عايزة حد يعرف إننا إتكلمنا في حاجة .

أومأت لها برأسي بمعنى أن لا داعي للقلق ، فتحت الباب وكان بالفعل "خالد" الذي دَخَلَ مُتجهّمًا كعادته ،لاحظت أنه مَسَحَها بعينه بسرعة لكنه لم يبد عليهِ إهتمام ، أيّ ثبات إنفعالي لهذا الرجل !

ألقى علينا التحية ، ثم نَظَرَ لــ "سوكا" قائلا :

- أدخلي إلبسي حاجة عشان "بيبو" بيشتري سجاير وطالع ورايا .

أسعَدني كثيرًا أن جاوبتهُ بإحدى ضحكاتها مِثلما فعلت معي وهى تقول بسخريّة :

- إيه يا جماعة في إيه ما تِهدُوا شِويّة .. هوّ إحنا في موسم التزاوج ولا إيه ! ؟ .

وإستمرّت في الضحك ، فأطلق "خالد" زفرة ضِيق ودخل غرفتهُ وأغلق الباب ، عادت إليّ مُسرعة سائلة بفضول الأنثى عن ما أنوي فعله ، فأجبتها بثقة :

- ناوي أعمل معاكِ واجب كبير .. ومع "بيبو" كمان ، بَس عِدّي الجمايل .

أطلت منها نظرة إمتنان ، وفتحت فمها لتقول شيئًا ، لكن قاطعها صوت "بيبو" وهوَ يفتح الباب ، إتجهت إليه وتعانقا العناق المعتاد مع قُبلتين قبل أن ينظر ناحيتي ويُلقي التحيّة ، لحظات وخرج
"خالد" مِن غرفتنا ، طَلَبَ مِن "بيبو" الجلوس لأن لديهِ معلومات جديدة، أشار "بيبو" لـ "سوكا" بأن تُعد لنا الشاي ، وإتخذ مكانه بجواري ، نظر "خالد" إلينا ثم قال .. "محمد التاجي" سافَرَ بالأمس إلى "قطر" وسيعود بعد أسبوع .
ثم أشعل سيجارة مُستطردًا .. لديّ فكرة يجب أن ننجح في تنفيذها.. بإمكاني معرفة ميعاد وصولِه ، وإن عاد في وقت يتناسب معنا فنستطيع مهاجمته على طريق المطار قبل أن يتمترس في قلعته.
ألقى "خالد" إقتراحه ونظر إلينا مُنتظرًا رأينا ، لم أرتاح نفسيًا لإقتراحه، كذلك "بيبو" الذي سَبقني للرفض بصورة قاطعة ، مؤكدًا أن طريق المطار مؤمّن جيّدًا وربما هو الطريق الوحيد الآمِن حاليًا ، بمجرّد حدوث مشكلة عليه ، ستجد سيّارات الشرطة أمامك ، ثم قال ضاحكًا :
- خُدها مِنّي ، أنا أخدت عربيات مِن كل حِتّة في البلد ومَشيت على كل السِكَكْ ، الطريق ده قَلَقْ .
جاءت "سوكا" ومعها أكواب الشاي ثم جلست بجوار "بيبو" الذي لم يهتم إطلاقًا بملابسها .
لساعة كاملة أخذنا نتبادل الآراء عن كيفيّة إصطياده قبل أن يصل إلى قلعته ، راجعنا كل المعلومات ، دلائل المؤشرات ، تباديل وتوافيق الإحتمالات ، ووسط كل هذا كانت "سوكا" جالسة تحشي بعض أزواج الحمَام ، ودون أن ترفع عينيها إلينا قالت :
- ها .. خلّصتوا ولا لِسّة .. جيبتوا آخركم يعني ؟ .
إتجهت إليها العيون ، فقد كان صوتِها يدلّ أن لديها ما تقوله ، إختصّتني بنظرة خاصة قائلة :
- الواجب ده عشان خاطرك إنت يا عم "حمدي" .

نَظَرَ "بيبو" إليّ بدهشة ، ثم عاد بعينه إليها ، مسحت يديها مِن الحمَام ثم قالت بإبتسامة عابثة :

- هو إنتوا تاعبين نفسكم كده ليه ! ؟، وعايزين تقطعوا طريق وتضربوا نار وتعملوا جو أكشن !

ثم مرّت بعينها علينا قبل أن تشرح خطّتها ببساطة .. لماذا المعاناة في البحث عنه إذا كنا نملك الطُعم الذي يجعله هوَ مَن يلهث وراءنا ، "التاجي" يتمنّى إصطياد عم "حمدي" ليتخلّص مِن شاهد الإثبات الوحيد، لكنه لا يعلم أن شاهد الإثبات أيضًا يُريد التخلص منه .

وصمتت لحظة ثم إستطردت ببساطة .. كل ما علينا فعله هو أن نُعشّمه بإصطيادنا ، وعندما يسحب سِلاحة ويظن نفسهُ شيخ الصيادين .. هنا يتم إصطياده .

لم يكذب مَن قال أن إحذر المرأة الذكيّة ، هذه الأفعى الجميلة وهى أصغرنا سِنًا وخبرةً وإحتكاكًا ، هى مَن وضعت خطة مُحكمة بمنتهى البساطة ، نظرت لـ "خالد" فوجدت نظرة التقدير الجَليّة في عينيه تُشير إلى موافقته ، أمّا "بيبو" فقد أبدى رضاه بأن تحسس شعرها بحنان قائلا:

- يا سلام ع الدماغ النضيفة .. آه يا قلبي ياللّي دايب .

ـ ٣ ـ

الجميع يعلم أن هُناك مَن رَوّض الأسُود ، النمور ، الدِببَة ، لكن لم يُقدِم أحد أبدًا على محاولة ترويض الأفاعي ، حتى "الرفاعي" ــ الحاوي المعروف بمُراقصَة الثعابين ــ لا يُغامر بإخراج أفعى مِن جرابِه دون نزع سِمّها أولا ، فكيف تَثِقْ في مَن إكتسَبَ شهرته مِن الغدر والخيانة .
اليوم أبدأ في ما لم يُقدم عليهِ أحد مِن العالمين .. ترويض الأفاعي .
نعم سأراقصهم دون نزع السُم مِن أفواهِهم .. إن نجحت ربما مررتُ سالمًا ، وعليّ تحمّل العواقب كاملة .. في حالة الفشل .
مَرّ خمسة أيّام على سفر "التاجي" وتبقى يومان على عودته ، لذا وَضَحَ إرتفاع مستوى الترقب والقلق ، وهذا هو التوقيت المثالي للترويض .. إن إستطعت ؟ .
مع دخول المساء هَمستُ في أذن "بيبو" : عايزك تعزمني على قهوة في أيّ حِتّة .
نظر لي بدهشة في البداية ، ثم أبدى مُوافقته ، دَخَل غرفتهُ يُغيّر ملابسه، سمعته يُخبر "سوكا" بخروجنا ، لتطلب مِنهُ الخروج معنا لنوصّلها عند "هدير" في طريقنا ، فإنتهزت فرصة إنشغالهم بالحديث ، وإتجهت لـ "خالد" هامسًا بغموض :

- أنا نازل مع "بيبو" رايحين مِشوار .. في شِويّة ورق تحت المخدّة بتاعتي ، بعد ما ننزِل والبيت يِفضَى ، عايزك تقراهم بالراحة .

قبل أن يستفسر عن شيء كنت قد أخذت "بيبو" و"سوكا" وإنصرفنا .
إصطحبنا "بيبو" إلى سيّارة تبدو جديدة تقف عند مسجد "الشعراني" ، فتحها مُشيرًا لنا بالدخول قبل أن يُديرها بثقة ، سألته بهدوء : إيه ده يا "بيبو" .. هوّ إنت مِش قُلت لي إنك إعتزلت ؟ .

- ما دي هِديّة الإعتزال ، يعني معقول لعّيب كبير زيّي ، يعتزل مِن غير ما يِلم الهدايا ! .

قاد السيّارة ليوصّل "سوكا" أولا ، إنصب حديثنا طول الطريق على الزحام في كل مكان ، الباعة الجائلون تركوا الأرصفة وإنقضوا على الشوارع كما أن مُعظَم الطُرُقْ مقطوعة لأسباب واهية .

صبّ "بيبو" جام غضبهُ على الثورة والحكومة المُتراخية الغير مُهتمّة بضبط الشوارع ، لا أدري لِمَ كل هذا الغضب ، فمِن البديهي أنه يعرف أن تواجد الحكومة يعني إلقاء القبض عليهِ بتهمة سرقة هذه السيّارة ، بالإضافة للتهمة الرئيسيّة وهى الهَرَبْ مِن السجن .

بعد فترة وصلنا أسفل عمارة في منطقة "غمرة" حيث نزلت "سوكا" ثم إنطلقنا في إتجاه "مدينة نصر" ، نظر لي "بيبو" سائلا بمكر : ورق إيه إللّي سِبته تحت مخدتك يا شقي ؟ .

كيف سَمِع ؟، أنا مُتأكد مِن همسي في أُذُن "خالد" ، لم أسأله طبعًا هذا السؤال ، إنما رددت بثقة :

- هتعرف كل حاجة في وقتها .

بالطبع لا يجب أن أخبرهُ بالحقيقة ، وهى أني أخشى رد فِعل "خالد" لِما فعلته ، لأني أدرك تمامًا أن ثعبان يعتمد على عضلاته هو أكثر شراسة مِن آخر يعتمد على سُمّه .. وإن كان كلاهما قاتل .

"خالد" لن يتسامح في تدخلي في حياتهِ الشخصيّة دون إذن مُسبَق ، وربما أتى برد فعل يصعُب تحمّله ، لِذا قررّت إخباره وأنا بعيد عن يديه، فانا اتعامل مع ثعبان قتل أختهُ ومديرهُ في العمل لمجرّد الشك في سلوكهما ، ثعبان عنيف بطبعه يقتل أولا ثم يسأل عن التفاصيل .

لذلك مِن الأفضل أن يقرأ كل ما حَدَثْ ثم يهدأ ويُفكر بغضب ، قبل أن يفكر بهدوء ، في النهاية أقابله ، هذا هو الأسلوب الامثَل للترويض .. وأتمنى ألا يخونني تقديري للموقف .

في حين أن "بيبو" كثعبان لا يقلّ عنه خطرًا لكنه لا يُغامر بِبَثْ سُمّهُ بسرعة لأنه لا يملك سِواه ، لِذا يستخدمه بحذر وعِند الضرورة ، إنما

المشكلة تكمن في "خالد" سريع الغضب الذي أتمنى أن يكون في حالة جيّدة عندما يمسك أوراقي الذي بدأتها بأنه عزيزي .. صديقي العزيز "خالد" .
إسمح لي أن أناديك بصديقي والعزيز لأني أعتبرك هكذا ، حتى وإن كنت لا تراني كذلك ، سأدخل في الموضوع بلا مقدّمات ، لقد قرّرت أمرًا هو بالتأكيد في صالحك لكن دون رغبتك أو أخذ رأيك ، لقد إتصلت أمس بمديريّة أمن "القاهرة" ــ طبعًا مِن إحدى الخطوط الموجودة في درج خزانة "بيبو" ــ ، طلبت تحويلي على المُقدّم "محمد الشناوي" .. شقيقك ، لحسن حظّي كان في مكتبه ، أخبرتهُ مباشرةً أنني مِن طرفك وأني أحدثهُ دون عِلمك .
أستطيع تَخيّل ملامح الغضب المُرتسمَة على وجهك الآن وأعلم أن ما يمنعك عن تمزيق الورق هو فضولك لمعرفة ما فعلته للنهاية .. حسنًا سأخبرك .
ما أن أخبرتُ أخيك أني على علاقة بك حتى صاح بفرحة طالِبًا مِني ترتيب لقاء معك ، أخبَرني أنه بحث عنك وطَرَقَ كل الأبواب دون جدوى ، كذلك أخبرني أن والِدك أُصيب بجلطة وأجرى عمليّة قلب مفتوح مُنذُ حوالي أسبوعين وهو الآن يمكث في العناية المُركزة لكن الحالة في تحسّن مُستمر ، عَرَضت زيارتهُ في المستشفى لأطمئن عليه، وافق فورًا ورجاني أن تحضر معي .
رفضتُ مُتعللا بقلة مقابلاتنا التي تحدث فقط عندما تأتي أنتَ لزيارتي ، وأنك لا تُعطي رقم هاتفك أو عنوانك لأحد لكني عرفت ما حَدَثَ وبُناء عليهِ أودّ زيارة والدك لأطمئن عليه وأطمئنكم أيضًا .
"خالد" عليكَ أن تُشعل سيجارة الآن وأن تَكُف عن السباب الذي تُطلقهُ بعد نهاية كل سطر ، أرجوك إهدأ فما فعلته هو لصالحك في الأساس ، حسنًا .. حسنًا .. سأكمل .
عندما إقترضت مبلغ مِن "بيبو" بالأمس وإدّعيت أني ذاهِب لعيادة طبيب ، لكن الحقيقة أني إبتعت باقة ورود وإتجهت لمستشفى الشرطة

بالعجوزة ، إستقبلني أخاك عند البَوّابة وإقتادني لغرفة والدك دون أن أضطر لإخراج بطاقتي لأني كما تعلم لا أملك أي إثبات شخصيّة .
قابلت والدك الذي تُشبهه كثيرًا ، طمأنتهم عليك وإن كان واضحًا عليهما عدم إقتناعهم بجهلي لمكانك ، ثم تحدثت مع والدك في ما جئت خصيصًا لقوله .. نعم تحدّثت مع والدك وأستطيع أن أدّعي ــ بمنتهى الفخر ــ أني أقنعتهُ أيضًا ، وأنت مُدرك كم هو صعب إقناع شخص عنيد مِثله .
في البداية أوضحت له أني اعرف مَدى قوته وصرامته ونفوذه الذي لم يتأثّر كثيرًا بقيام الثورة ، ثم أخبرته أني غير خائف منه وما أتيت إليهِ إلا لأنير بصيرته ، سألته مباشرة عن سِر غضبهُ مِنك وعدم وقوفه بجانبك وأيضًا عِقابه لك في حين أن جريمتك هى الدفاع عن شرف العائلة .
ردّ ببساطة .. أنه وقف بجانبك فعلا بدليل سِريّة المحاكمة ومُعاملتك في السِجن كالملوك ، فكيف لك أن تحصل على مُعاملة كهذه إلا إذا كنت أحد الوزراء السابقين أو عليك توصية مباشرة منه .
"خالد" أنا مُدرِك لتساؤلاتك وإستنكارك لعدم حضور والدك أو شقيقك للمحاكمة أو زيارة أيّ منهما لك طوال فترة السجن ، للعِلم أباك أجاب على هذه النقطة بأنه لا يتحمّل رؤية إبنه بثياب السجن وجريمته هى قتل أخته ، لكنه أرسل لك نقود بطريقة غير مباشرة وهذا حَدَثَ اكثر مِن مرّة وكان يُتابع أخبارك بكل دِقّة ، هو فقط قرّر أن يبتعد عنك لفترة عِقابًا لك .
نعم عِقابًا لك على فِعلتك في كل المحيطين بك ، تساءل الرجل .. هل أنت مُدرك للكارثة التي إقترفتها ؟ ، هل تعلم حجم الفضيحة التي تسببت فيها ؟ .
بصبر تركته يُفرغ شحنته ثم أخبرته أن عليه تحَمّل ما أقول .. قُلت له أنك سبب كل ما حدث مِن البداية ، سُوء تربيتك لإبنتك وكثرة تدليلك لها هوّ ما جعلها تصِل إلى ما وَصَلت إليه ، رعونتك أمام أخطائها هو ما

دفعها لإرتكاب المزيد ، عدم حسمك لطلاقها مَرّة وإثنين مع علمك أنها المُخطئة هو ما مَنحها شعور أنها فوق مستوى العقاب ، وفي النهاية ألقيت التُهمة عن كاهلك في حين أنك السبب الرئيسي في موت إبنتك وسجن إبنك .
ما رأيك يا صديقي .. ها أنا قد أخبرته بكل ما كنت تَوَدّ قوله ، أعتقد انك الآن راضي عنّي كل الرضا ، وسأزيد سعادتك أيضًا بأن أخبرك لرؤيتي الدموع تترقرق في عينيّ سيادة اللواء ، ومِن الجيد أن قوة أعصابه حالت دون حدوث إنتكاسة بسبب قسوة كلماتي ، كذلك "محمد" شقيقك أطرَقَ برأسَهَ أرضًا ووَضَحَ عليهِ التأثّر الحقيقي ، الوحيد في الغرفة الذي إدّعى التأثر هو .. أنا .
نعم أنا لم أتأثّر أبدًا بما أقول .. ربما لأني أعلم أني كاذب ألوي عنق الحقيقة ! .
ها أنا قد أثَرْتْ عاصفة غضبك بعد أن بدأت في الهدوء ، حاول إستعادة هدوئك ثانية .. رجاء ، أشعل سيجارة أخرى أو إغسِل وجهك بماء بارد قبل قِراءة السطور التالية .. هذا لمصلحتك .
مرحبًا بعودتك مُجددًا يا صديقي .. والدك وشقيقك طلبا مِنّي توصيل رغبتهم الحقيقيّة في رؤيتك ، ونظرًا لأن الفترة الماضية جعلتني أقرأك جيّدًا مِثلما قرأتني ، فإني على دراية بأنك سترفض هذا الطَلَبْ ، لِذا سأضطر أن أخبرك سبب شعوري بالكذب ، ربما لو عرفت .. زال سبب الرفض .
يا صديقي لقد حمّلت والِدك المسئوليّة كاملة .. هذا كَذِبْ طبعًا ، الحقيقة أنه يتحمّل جزء يَسير منها فقط ، أمّا الجزء الأكبر فأنت السبب فيه ، أنت العنصر الفعّال في هذه القضيّة .
لا داعي يا "خالد" لكل هذا السباب .. إسمعني أولا وإقرأ ما بين السطور ، بهدوء إن أمكن .
"خالد" .. عليك أن تسأل نفسك ، هل فعلت ما فعلت ثأرًا لشرف عائلتك فقط ، أم لِشدّة غضبك مِن خدعة رئيسك لك وإستهتار شقيقتك بِك ، ولا

تَقُل أنك فعلتها إنتقامًا لشرف العائلة ، لأن كلانا يعلم أن شرف العائلة ما كان قد لُوّثَ بعد .
"خالد" .. ما هو الأفضل والأكثر عقلانية ، أن أضع رجل خدعني تحت ضرسي أم أضعهُ في القبر ، قبل أن تُجيب بأن لا تفاوض في الشرف، يجب أن أخبرك أن ما فعلتهُ أختك حَدَثْ ويحدث في أعرق العائلات ، وكان مِن المُمكِن أن تنتهي هذه المشكلة بعقد زواج ، ولا تنسى ان هذا في حالة ضبطهُم مُتلبسين في غرفة النوم ،ما بالك وقد ضبطتهم مُتلبسين بشرب العصير في الصالة.
كُن منطقيًا وإعترف أنك أنهيت حياتهما في لحظة غضب نتيجة إستفزازك ، كُن واضحًا وإعترف أنك أخذتك العِزّة بالإثم ، وما قتلتهما إلا لتنتقم لكرامتك مِن رجل أهانك عن عَمد وقَصَدَ تغفيلك .
في النهاية لابد أن تعلم أني تدخلت في حياتك الشخصيّة لإصلاح ما أفسدته أنت ، لا مصلحة لي في ذلك أو نفع ، بالعكس لقد تحمّلت وحدي مُخاطرة الذهاب لهم مع وجود إحتمال ولو ضعيف أن يُلقوا القبض عليّ، ولأني مؤمِن بكل حرف كتبتُه إليك ، لذلك شعرت أني كذبت على والدك عندما حمّلتهُ الذنب كله ، لأنك في الواقع .. تتحمّل معظمه .
لكن لازال في الإمكان تدارك الأمر ، والدك ينتظرك ، شقيقك يتمنّى رؤيتك ، في ظهر الورقة الأخيرة ستجد رقم هاتفه ، إتصل به وإذهب لرؤيتهما ،فلا يجب أن تأخذك العزّة بالإثم .. مرتين .

- تعالى نقعد في الكافيه الفِخِمْ ده يا عم "حمدي" مع إن المشاريب هنا غالية بَس مِش خسارة فيك.

هكذا أيقظني "بيبو" مِن شرودي ليدعوني لإحتساء القهوة بطريقته ، وافقتهُ بإبتسامة شاردة ، ركَنَ السيّارة ودخلنا المقهى ، إنتقى طاولة ذات موقع مُميّز ثم نظر لي قائلا بمكر :

- شايفك سرحان طول الطريق ، طبعًا .. زمانك بتقول يا ترى يا "خالد" هتتصل بأخوك ولا لأ .

إرتسمت الدهشة على وجهي قائلا بغضب مكتوم ..إيه ده ؟ ، إنت بتتجسس عليّ يا "بيبو" ؟ ! .
رد بضحكة عالية .. بتتجسس كده مَرّة واحدة ! ، لا يا عم "حمدي" .. أنا لمحتك إمبارح قاعد سهران بعد ما البيت كله ما نام ، قُلت يمكن تكون بِتُحطّ خِطة اللعب ، يبقى طبعًا لازم أشوفها ، مِش يمكن تكون حاططني نُص ملعب وانا بحب ألعب مُهاجم صريح .
- وإنت شُفت الخطة إمتى ؟ .
رد بإبتسامة عريضة وهوَ يُشير للنادِل :
- أوّل ما دخلت تنام ، إتسحّبت انا بالراحة وشُفتها .. صحيح إنت نومك تقيل قوي كده ليه ؟!.
نظرت له وهو يطلب القهوة ماسِحًا إيّاه مِن قمة رأسَهُ حتى أخمص قدميه ، إذن "بيبو" له قدرة عالية على التجسس ، يستطيع السَهَر لساعات طويلة دون أن يتأثّر ذِهنيًا ، علاوة على أن بإمكانه سماع دَبّة النملة .. أيّ نوع مِن الأفاعي هذا ؟ .
كدت أعبّر له عن إعتراضي الشديد لتجسسهُ على خصوصيّاتي لكني تراجعت مَنعًا لتوتر الأجواء ، هذا ما لا أتمنّى حدوثه ، فالهدوء وصَفاء الجو ضروريّان جدًا للترويض .
- عايز أتكلم معاك في موضوع يا "بيبو" .
أشعل سيجارة قائلا بضحكة تهكم :
- إيه .. إوعى تقول إنك رُحْتْ لأبويا وقُلت له إزّاي يا جَدَعْ إنت ترمي إبنك في الشارع ، ولا بأمارة إيه تِخلّف دستة عِيال .. هوّ إنت لاقي تاكل يا سيد الرجالة ! .
طريقتهُ أجبرتني على الضحك بصوتٍ عالٍ وهذا يتنافى مع آداب الجلوس بالأماكن الراقية ، بالكاد إستطعت أن أُوَصّل له أني أريده في شأنٍ آخر ، أطلّت مِنه نظرة ترقب مُتسائلة .

إلتزمت الصمت برهة مُحاولا تجميع أفكاري .. "بيبو" مِن بضعة أيام كنت أشاهدك تُداعب "سوكا" ، تخيّلت لو رُزِقتَ بطفل منها ، حتمًا سيكون طفل معجزة ، لِمَ لا وأنتما والداه .
أتت القهوة ، أخذ رشفة وهوَ ينظر لي مُحاولا إستنتاج ما أرمي إليه ، فإستطردت بهدوء .. بما أني رجل له ضِعف عُمرك فإسمح لي أن أسديكَ نصيحة هامة أريدك فقط أن تفكر فيها .
أخذت رشفة مِن قهوتي ثم نظرت في عينيهِ بصرامة قبل أن أبدا الترويض .. إغراءات الحياة كثيرة يا صديقي ، مِن أهمّها القوة .. الصحة .. الشباب ، يتحسس الرجل مِنّا قوته فيعتقد أنها دائمة ، أو للدقة لا يرغب في التفكير في ماذا بعد أن يزول الشباب .. وهو حتمًا سيزول.
هل تعتقد أني وُلِدتُ كهلا أشيب الشعر كما هو حالي الآن ، لقد مررت بما أنت فيه ، نعمت بمثل قوتك وشبابك ، لذّة الشعور بأنك مَرغوب تطاردك أعين الفتيات ، إنما للأمانة لم أُنشئ أبدًا علاقة بقوة علاقتك بوليفتك ، ذلك لأني لم أقابل مَن تفهمني كما تفهمك هى ، لم أُصادف مَن تحبني كما تحبك هى ، لم ألتقي بمَن تعشقني مثلما تعشقك هى ، رغم ذلك تزوّجت ، تزوّجت لأن مع تخطي الأربعين مِن العمر تجد أن ليس أمامك خيار آخر ، لا مَفَرْ مِن الزواج فقط ليكون لديّ أطفال ، فأنا أعشق الأطفال وأعلم أنك تعشقهم أيضًا ، فقد لَمَحت نظرة الجزع واللوعة في عينيك يوم إختطاف "سوزي" وهى ليست إبنتك ، ما بالِك لو كانت بذرتك مِن صُلبِك .
يبدو أنه بدأ يُدرِك ما أرمي إليه ، فقاطعني بإبتسامة :
- شُفت .. يبقى الحمد لله إني ماعنديش عيّل أترعب عليه لو حَصَلْ له حاجة .
لم أبدِ أي أثَر لمقاطعته سِوى أني صمت لحظات ثم إستطردت .. إسمعني للنهاية بعد ذلك أقبل أو أُرفض أنا لا أجبرك على شيء ، فقط أريدك أن تفكر ، تفكر في ماذا لو إقتربت النهاية ؟ ، على مَن تستند ؟ ،

أنت بعد أيّام ستصبح مِن ذوي الملايين .. لِمَن ستتركهم ؟ ، والسؤال الأهم .. إن لم تُنجِب مِن إمرأة تعشقها وتعشقك .. مِن مَن تُنجِب في رأيك ؟ .
إنعقاد حاجباه دليل أن كلامي بدأ يأخذ طريقًا إلى قلبه ، شعرتُ أن داخله بوادر صِراع عبّر عنه أن سأل بِغتّة : هى "سوكا" كلمتك في الموضوع ده ؟ .
هززت رأسي نفيًا مع إشارة قاطعة بيدي ، فنظر لي بِشَكْ وهو يقول :
- أصل غريبة إنك تكلمني في الحِوار ده .. إذا كان صاحبة الشأن نفسها عمرها ما إتكلمت فيه .
إبتسمت بثقة .. لأنها تحبّك بجنون ، والمرأة عندما تُحِب بصدق لا يُمكن أبدًا أن تطلب الزواج مِن حبيبها ، لابد أن يطلب هوَ ، لأن لذتها الحقيقيّة تكمُن في سماعها لِعرْض الزواج ، أنا أريد فقط أن أنبهك حتى لا ينفذ صبرها أو تيأس مِنك ، لأنك إن أوصلتها لهذا فستتحوّل لإمرأة أخرى .
- إزايّ يا عم "حمدي" ؟ ، يعني أدخل البيت ألاقيها أمّنا الغولة يعني ولا إيه ؟ .
ضحكت قائلا .. لا .. "سوكا" لو تحوّلت ستجدها الغولة نفسها وأمها وأباها أيضًا .
ثم مِلتُ بجسدي ناحيتهِ مُحذرًا .. أخشى ما أخشاه أن يلعب أي رجل برأسها في حالة .. .
قاطعني بصيحة حاسمة .. مستحيل ، "سوكا" تحبني .
صيحتهُ تدل على سقوطه في ما دفعته إليه ، لذا عاجلته بسؤال مباشر .. وأنت ؟ .
رد على الفور : ما إنتَ عارف .. دي قلبي إللّي دايب .
إتسعت إبتسامتي .. وماذا تنتظر ! ؟ ، ماذا ينقصك لترضيها وتحافظ عليها ، يا مُغفّل .. إن أكثر الرجال تفاؤلا يحلم بإمرأة تتناغم معه بنسبة خمسون بالمائة ، لماذا تترك أنت العلامة الكاملة ؟!.

أَخَذَ يُدخّن سيجارتهُ بشرود فأكملت ترويض بثقة أكبر .. أعلَم ما يؤرقك، أنت تخشى ضياع الليالي الحميميّة وتحولها إلى إعتيادية كالتي يحياها سائر البَشَرْ ، تؤرقك فكرة أن تصبح أجمَل أوقاتك معها مُجرّد تأدية واجب لا مفر مِن القيام به .. أليس هذا ما تخشاه ؟ .
ثبات عينيهِ وإنعقاد حاجبيه كان مؤشر لإصابتي الهدف ، لِذا أكملت .. كل ما تخشى حدوثِه إن حَدَثْ فهو لا يساوي لحظة ضمّك لصغيرك إلى صدرِك وسماع إسمك بصوتِه ، حركتهُ وهو يكبر أمام عينيك ، كل هذه النِعم لابد لها مِن مُقابل ، ليس بإستطاعتك ذبح البقرة وشرب لبنَها في آن ، وللعلم ليس بالضرورة ضياع لياليك الساحرة ، ربما صارت أكثر سخونة لو زاد الإشتياق .
أطفأ سيجارتهُ قبل أن يبتسم قائلا :
- الله .. إيه يا عم "حمدي" الفلسفة الجامدة دي .. والنبي حاسس إني قاعد مع "نيوتن" شخصيًا !.
كالعادة لم أُصحح معلوماتِه أو أسأله ما علاقة "نيوتن" بالفلسفة ، رَبَتّ على كتفهِ بود :
- عايزك تفكر في الكلام ده كويّس يا "بيبو" ، أنا كِده كِده مِش هاخد حاجة مِن جوازك أو عَدَمُه ، بالعكس إنت لو إتجوّزتها ، أنا هدفع مبلغ جامد .. أصل لازم أنقّطَك نُقطَة صح في ليلتك ، أنا إبن بَلَد برضه زيّك يا "بيبو" وبفهم في الأصول .
هزّ رأسَهُ ولم يُعلّق ، أشرتُ للنادل وقام "بيبو" يدفع الحِساب ثم خرجنا سويّا مِن المقهى .
في طريق عودتنا لم ينطق "بيبو" بكلمة واحدة ، إلتزمت الصمتُ أيضًا تاركًا له مساحة للتفكير بهدوء ، إلتقطنا "سوكا" مِن حيثُ تركناها ، لم أحدثها في شيء أمامه لكن رميتها بنظرة معناها أن كل شيء على ما يُرام وتبقى القليل فقط ، أعلم أن لديها مِن الذكاء ما يؤهلها للفهم ، وصَدَقَ حِسّي فعلا لأنها جاوبتني بإبتسامة خفيفة مع نظرة إمتنان عميقة.

عندما كانت عقارب الساعة تُشير إلى العاشرة مساءًا كان "بيبو" يفتح باب الشقة ، إتجهت لغرفتي بسرعة وكَم كانت سعادتي بالغة عندما وجدتها خالية و"خالد" ليس فيها ، دَخَل "بيبو" خلفي ، مَسَحَ الغرفة بعينه ، ثم مَنحَني إبتسامة وإنصرف .
بدّلت ملابسي وألقيت جسدي في الفراش شاعرًا براحة كبيرة ، ها أنا قد بادرت بكسب وِدّهُم ، فأنا لست قويًا مثلهم ولا أستطيع مجاراتهم ، إذن طريقي الوحيد هو إكتساب تعاطفهم لعلّ وعسَى ، وهذا ما فعلتهُ أو حاولت أن أفعله ، وأتمنى أن يحالفني التوفيق أو .. يكفيني شَرَفْ المُحاولة .

_ ٤ _

لا زلت في إنتظار أيّ صَدَى لمحاولة إصلاح ما أفسدوه ، مَرّ ثلاثة أيّام على قيامي بدور المُصلِح الإجتماعي ، ولم يظهر دليل واحد على نجاح الترويض .. أو فَشَلَهُ .
يبقى الوَضْعْ على ما هو عليه ، لم تُطرِب "سوكا" أُذُني بأيّ خَبَرْ سار ، لم ينطق "خالد" بكلمة شكر واحدة .. أو هجاء ، أمّا "بيبو" فهو كما هو لكن أضيف عليه إنعقاد شِبه كامل لحاجبيه ، مِن الواضح أنه يفكر أكثر مِن ذي قبل .
في الواقع كلنا نفكر.. كل ليلة نجلس نتحاور ونخطط في طريقة يستطيع بها "التاجي" أن يجدنا ، وهذا ليس هينًا ، فكيف تطلب مِن ثعبان قضى عُمرهُ صيادًا ،أن يلعب ولو مؤقتًا دور الفريسة ؟ !
بعد تفكير عميق وجدنا أن علينا الحصول على رقم هاتفه ثم التفكير في ماذا بَعْدْ ؟ .
حاول "خالد" بكل السُبُلْ الوصول لرقمه قبل أن يُخبرنا أن هذا الرجل صَعبْ المَراسْ والمنال جدًا ، علاقاته مشبوهة ، يُنفق إنفاق مَن لا يخشَى الفقر ، مُحاط بجدار مِن السِريّة أسواره شائكة .
حتى إقتراح "سوكا" بأن نحاول الوصول إليهِ في مَقر عمله قوبل بالرفض لأنه شِبه موقوف عن العَمَل لمهاجمته جهاز الداخليّة بإستمرار وإدّعائه عليهم بما ليس فيهم .. هكذا يؤكد "خالد" دائمًا .
كذلك الإقتراب مِن منزله يندرج على مُخاطرة كبرى ، فقد يحتجز مَن يذهب إليهِ ويفعل بهِ ما يشاء ليصِل إلى ما يُريد .. كل الطُرُقْ تؤدّي إلى حتميّة الحصول على رقم هاتفه لكن كيف ؟ .
أعدّت "سوكا" القهوة ووزّعتها ثم تركتنا لعاصِفتنا الذهنيّة وأدارت التلفاز قبل أن تصيح بفرحة :
- والنبي يا بت يا "سوكا" إنتِ فيكِ شيء لله .

إتجهت العيون كلها للشاشة الصغيرة فوجدناه جالسًا بثقة في إحدى برامج الكلام الليليّة ، في حين يُدير المُذيع حِوارهُ معه عن سوء أداء الداخليّة قبل الثورة وتراخيها بعدها .
غمغم "خالد" بغيظ : يعني قاعِد قُدّامنا ومِش عارفين نوصل له .. طَبْ إزّاي ؟ .
لَمَعت عينا "بيبو" بِشدّة قائلا : صحيح والله .. إزّاي ؟ .
ثم قام بسرعة وأحضَر شريحة محمول ، وضَعها في هاتفة قبل أن يطلب مِن "سوكا" أن تُمليه رقم هاتف البرنامج الموجود على الشاشة ، سأله "خالد" بترقّب عن ما ينوي فعلهُ ، رد ببساطة :
- مِش عارف .. هحاول أنكُشُه .. بَس مِش عارف إزّاي ؟ .
رد "خالد" على الفور : بلاش تِكلمه قبل ما تحضّر حاجة تقولها الأوّل.. الراجل ده مِش سَهل .
رّدّت "سوكا" بإبتسامة وهى تقول مُحمّسة : ولا إحنا تلاميذ .. خُشْ عليه يا "بيبو" ولا يهمك .
كدت أُجَنّ عندما رد عليها بحنان : آه يا قلبي ياللّي دايب .
هذه المَرّة نويت الإعتراض فعلا فالوقت غير مُناسِب لتبادل الغزل لكنى وجدته يقول في الهاتف
- أيوة يا باشا ، أنا عايز أعمِل مُداخلة عشان أكلّم سيادة المُقدّم، أصلي خَدَمْتْ معاه وهو عارفني .. إسمي "أحمد محمد محمود"، أمين شرطة وكُنت عايز أشكر الباشا على الهوا وأقول كلام مُهم.

يبدو أنهم طَلَبوا مِنهُ الإنتظار دقائق ، لأنه ردّ بروحِهِ المرحة :
- ماشي .. بّسْ والنبي بلاش تسيبني كتير ، أصل الرصيد على قَدّه .
دنا "خالد" مِنهُ هامسًا :
- إوعى تِحسِبْ إن لمّا تغيّر إسمَك هو مِش هيعرف يجيبك ، رقم الموبيل ده هوّ إللي هيوصّله لنا.

جاء دوري للتدخّل في الحديث قائلا بحسم : وهوّ ده المَطلوب ..إحنا أصلا عايزينه يوصل لنا .
داعبتني "سوكا" بدلع مُراقِصة حاجبيها : يا سلام عليك يا مِعلم .. والنبي خبرة كبيرة ما شاء الله .
تأهبت للرد على مُجاملتها الرقيقة لكني وجدت المُذيع يقول بآليّة :
- معانا يا جماعة تليفون مِن واحد يُمثّل شريحة أخرى مِن الداخليّة ، شريحة أُمناء الشرطة .
طفَى الإرتباك على وجه "بيبو" لجزء مِن الثانية لكنه إسترد جديّته بسرعة قائلا بثقة يُحسد عليها:
- السلام عليكو ..أنا بتصِل عشان عايز أضُم صوتي لـ "محمد" باشا،فعلا الداخليّة لازم تِنضَف.
يبدو أن هذه العِبارة وجدت صَدى طيّب لدى المُذيع الذي قال بنبرة سعادة :
- أهلا وسهلا يا فندم .. الأوّل نتعرّف بحضرتك .
- أمين شرطة "أحمد محمد محمود" ، خَدَمت مع "محمد" باشا لمّا كان مُفتش في مصلحة السجون ، الباشا طول عمره شعلة نشاط والله، بَس تقول إيه ،هى بلدنا كده .. بتحارب الكفاءات .
نَظَرَ "التاجي" للكاميرا بوجه لا يُظهر أيّ إنفعالات ثم سألَ بهدوء : خَدَمتْ معايا فين يا "أحمد" ؟
رد "بيبو" بلهجة ذات مَغزى : في مصلحة السجون يا باشا ، بالتحديد في سِجن "الفيوم" ، ربّنا بقى يجازي ولاد الحرام إللّي حرقوه وقتلوا اللواء "البدران" الله يرحمه .
إنعقد حاجبا "التاجي" وهو ينظر للكاميرا نظرة شعرتُ أنها ستخترق الشاشة وتحرقنا في مكاننا ، فتحَ فمُهُ ليقول شيئًا لكن المُذيع كان أسرع منه وهوَ يسأل "بيبو" بحماس :
- إتفضّل يا أستاذ "أحمد" .. حضرتك كنت عايز تقول إيه ؟.

أَخَذَ "بيبو" شهيق قوي ثم إندفع بحماس قائلا .. أريد أن أقول للمسئولين في الداخليّة أن كفاكم ظُلمًا للعباد ، لقد قُمنا بثورة مِن أجل العَدل ، لكن الظُلم لا يزال قائمًا كأن ثورة لم تَقُم وكأن نظامًا لم يسقط ، أنا كرجل أعمل أمين شرطة .. ماذا تغيّر في حالي ؟ ، كل الأعمال فوق رأسي ، أذهب لتأمين مباراة كرة قدَم نهارًا ، ثم أعود لتأمين موكب وزير ليلا ، مسئول عن كل شيء وأيّ شيء ، وفي النهاية راتبي لا يكفي أعبائي لأكثر مِن عشرة أيّام ، بماذا أُطعِم أطفالي ؟ ، ثم تقوم الدنيا ولا تقعد عندما نضطر لأخذ إكراميّة مِن أحد !! .
صَمَت لحظة ليسترد أنفاسه ثم إسترسل بحماس أَشَدْ .. هل تعلم أن في حالة إصابة أمين الشرطة في مظاهرات أو حادثة أو حتى لو مَرِضَ.. لا يجوز له العلاج في مستشفى الشرطة كأن الضُبّاط مِن طينة ونحن مِن طينة أخري ، مع أن الحقيقة أننا مِن نُأمّنهم .. وهم يعاملوننا أسوأ مُعاملة ، يوميًا سُباب وتطاول وقِلّة قيمة ، وإذا خَرَجَ ضابط مُحترم مِثل "محمد التاجي" ليحاول إرجاع الحق لأصحابِه ، تجدهم يُهاجموه ويُحوّلوه للعمل الإداري !!.
ثم سَعَل قبل أن يُنهي خُطبتهُ الميدانيّة قائلا .. أنا إتصلت ببرنامجك المُحترم لأقول رأيي وشِهادتي أمام الله وأمام المُشاهدين الكِرام ، حالنا لن ينصلح أبدًا إلا إذا نُسِفَ جهاز الداخليّة بالكامل وأُعيد هيكلته مِن ضبّاط يخافون الله ويتقونه في بلدهم .. والله على ما أقول شهيد .
رد المُذيع بإحترام : رسالتك وَصَلت يا "أحمد" ويارب صوتنا يسمعه كل المُخلصين في البلد .
أكمَل "بيبو" بإصرار : إن شاء الله "مصر" هتبقى أحسن بلد في العالم .
أكمَل "التاجي" الذي كان مُستمع بتركيز طول الوقت :
- إن شاء الله يا "أحمد" طول ما في ناس عندها إصرارك وحماسك ..أكيد هنحقق أهداف ثورتنا.
رد بلهجة غامضة : يا باشا .. الحَماس والإصرار أنا إتعلمته مِن سيادتك وكمان .. دقة التصويب.

هزّ "التاجي" رأسَهُ بتجاوب مع لمعة في عينيه تدل على وصول الرسالة .
أنهى المُذيع المُكالمة وإستأنَف حواره مع "التاجي" الذي نَجَحَ في الحفاظ على صلابة ملامحه . أطلق "بيبو" ضحكة عاليَة سائلا "سوكا" : إيه رأيك يا قلبي .. ثورجي أصلي.. مِش كده ؟ .
أجابته بإبتسامة عريضة : هوَ إنتَ عرفت الكلمتين الجامدين دول مِنين يا بيبي .
رد بثقة : أصلي لِسّه قاري كتاب عن قصة حياة واحد ثورجي شِديد إسمه "جيفارا" ، راجل على كيفِك يعني ، ده حرّر بلاد كتير مِنهم "البرازيل" و"إندونيسيا" .
فوجئت بـ "خالد" يضحك وهذا ليس هيّنًا : "البرازيل" و"إندونيسيا" !! ما كفاية هَجَصْ بقى .
تدخّلت في الحَديث قائلا لـ "خالد" بدهشة :
- يعني إللّي فَرَقْ معاك إنه شقلِب حياة "جيفارا" !! ، ومِش فارق معاك إنه بيهاجم الثورة ليل ونهار ، فجأة ألاقيه بيتكلم بحماس كأنه مولود في ميدان التحرير .

جاوبتني "سوكا" بضحكة عالية قائلة :
- آه والله يا عم "حمدي" ده أنا قُلت خلاص .. إحنا هنعتصم الليلة في الميدان جماعة إن شاء الله .

إبتسم "بيبو" بسخرية : عرفتوا إن الشعارات والهتافات مفيش أسهَل مِنها .. المهم الذَكَر إللّي ينفّذ.
نعم ما أسهل القوْل وما أصعب التنفيذ ، فقد نَجَحَ "بيبو" بجرأته في ما أجهدنا عقولنا في الوصول إليه ، ببساطة وحيلة ذكيّة إستطاع أن يجِد همزة وصل بيننا وبين ثُعبان صعب إصطياده .
حتمًا "التاجي" سيحصل على رقم الهاتف مِن الكونترول وبالتأكيد سيتصل .. ونحن في الإنتظار.

ـ ٥ ـ

مع نهاية الحلقة أغلقت "سوكا" التلفاز وإتجهت بخطوات شاردة لتجلس بجوار "بيبو" الذي لَمَحت في عينيه لأوّل مرّة مُنذُ عرفته نظرة توتر ، نظرت إلى "خالد" فوجدته يُشعل سيجارة مُحافظًا على رباطة جأشه ، لكن إعتصاره للسيجارة ودفعه للدخان بقوة يشي بالتوجّس داخله .
لديهم كل الحق في إضطرابهم هذا ، فبهذه المُكالمة أحرَق "بيبو" سُفُنْ العودة ، ولا مَفَرْ مِن المواجهة ، لأن لِقاء "التاجي" لن يتأخر كثيرًا .
أخيرًا تحدّث "خالد" سائلا "بيبو" عن طبيعة خط المحمول الذي أجرى مِنه المكالمة فأجابهُ بأنهُ مسروق وبلا بيانات في شركته ، ردّ "خالد" بنبرة إرتياح .. إذن "التاجي" أمامهُ يومان أو ثلاثة ليتمكن مِن معرفة مكاننا ليس قبل ذلك لأن بعد الثورة هناك تعقيدات كثيرة مع شركات المحمول.
نبرة الإرتياح في صوت "خالد" علاوة على توتر "بيبو" و"سوكا" لَفَتَ إنتباهي أننا طوال الفترة الماضية مشغولين بإيجاد وسيلة لنصِل إليه ،في حين أننا لم نفكر أبدًا في ماذا سنفعل بعد أن نجده.
طَرَحْت ما في ذِهني مباشرةً قائلا :

- يا جماعة لازم نفكر بسرعة .. نعمل إيه في اليومين دول .. قبل ما يوصِل لنا .

لكن يبدو أن "التاجي" قرّر عدم منحنا تَرَفْ التفكير بهدوء ، ففي الحال سمعنا هاتف "بيبو" يدق ، نظر في شاشته ثم إبتسم بإرتباك مُتمتمًا : رقم شِديد .. شكله بتاع حد مهم .
بهدوء أطفأ "بيبو" سيجارته ثم فتح مُكبِر الصوت قبل أن يقول ببرود :

- كنت مُتأكّد إنك هتتصِل على طول .. مَساء الورد على سِيد البشوات .

لحظـات صَـمْتْ ثـم سـمِعنا صـوت "التـاجي" يقـول بثبـات : إزيّـك يـا "أحمد".. عامِل إيه ؟ .
- الحمد لله يا باشا .. عايشين مِن فضلة خيرك .
سأله بغتة : إنت بتخدِم فين دلوقت .. لِسّه في "الفيوم" ؟ .
تبادل "بيبو" مع "خالد" نظرة مُستفسِرة ، ثم رد عليه : لا يـا باشـا .. أنـا إتنقلت "القاهرة" .
رد "التاجي" بثقة : مـا أنـا عـارِف إنك قاعِد فـي "بـاب الشِعرية" .. أنـا قصدي شُغلَك فين ؟ .
صَدَمنا الرد فعلا ، فلم نتوقع أنه يستطيع تحديد مكاننا بهذه السرعة ، لم يجد "بيبو" ما يقوله وطالت فترة الصَمْتْ ، فإستطرد "التاجي" بهدوء :
- إيه يا "أحمد" ولا شوف إنت إسمك الحقيقي إيـه ؟ ، مـا بتردّش ليه ؟ .. إوعى تكون خايف .
إستجمَعَ "بيبو" شجاعته قائلا :
- وأخاف مِن إيه يا باشا ؟ .. ده أنا إللّي طالبَك عشان معايا حاجة تُخصّك .
- تمام .. وأنا عايزها .
رد "بيبو" على الفور : خلاص .. يبقى تِدفع مَهرها .
صَمَتَ "التاجي" لحظات ثم قال بصرامة :
- الكـلام ده مـاينفعش فـي التليفـون ،بكـرة السـاعة واحـدة الضُـهر تبقى عندي في البيت ، العنوان .. .
قاطعه "بيبو" بصوت بهِ لمحة تحدّي :
- عارف العِنوان يا باشا ، بَسْ قبل ما نتقابل عايزك تبقـى عـارف حقيقة علميّة مُهمّة .
وإنتظر لحظة ثم إستطرد بصرامة : مِش كل الطِير لحمه ينفع يتّاكِل يـا سِيد البشوات .
وأغلق الخط دون أن يُضيف كلمة واحدة .

مَكثنا دقائق نتبادل النَظَر فيها لبعضنا ، وأوّل مَن تحدّث كان "خالد" الذي قال بغضب :

- غلطة كبيرة يا "بيبو" إنك وافقت تروح له البيت .. إنتَ كده هتبقى تحت رحمته .

أطلق "بيبو" زفرة ضيق وهو يقول : ما أنا لو كنت رَفَضْت .. أبقى خايف مِنّه .

حاولت "سوكا" كسر التوتر بأن قالت بمَرِحْ .. ما عاش إللّي يهزّك .. ده إنتَ تِطحنهُ يا بيبي .

نظرت لها بإعجاب ، حقًا نموذج للمرأة المُشجعة لرَجُلِها على الدوام ، كذلك "بيبو" و"خالد" لا يقلان كفاءة ، لكنهما كأفاعي لا يرغبون أبدًا في المواجهة دائمًا يفضلون إقتناص الفريسة غدرًا. مع تصاعد وتيرة الترقب قررّت التدخل مُستعيرًا سخريتهم :

- إيه يا جماعة كل القلق إللّي شايفه ده ؟ ، على حَدْ عِلمي إحنا مِش تلاميذ .

رد "خالد" بثبات : ما إحنا فعلا مِش تلاميذ ، بَسْ هو برضه مِش سَهْلْ، الموضوع عايز خطة مقفولة ، أصل أيّ غلطة معناها إننا حتى مِش هنلحق نندم عليها .

إبتسمتُ بثقة قائلا : طيّب وإللّي يقول لك على خطة مقفولة .

إتجهَت العيون تجاهي ، تركتهم لحظات يترقبّون ، ثم تحدّثت ببساطة .. غدًا "بيبو" يذهب له في الميعاد ويأخذ "سوكا" معه لإعطائه إيحاء بعدم وجود نِيّة للغدر ، أيضًا لأن "سوكا" تُجيد قراءة الموقف ولديها مَوهبة إستنتاج ما وراء الأحداث .

تُخبرهُ أني شاهد على جريمتهُ لكني لا أريد إيذاؤه ، فقط أريد أن يتركني وشأني ، بالطبع لن يقتنع بهذا الحديث وسيرفض ، هنا تعرض عليه عرضك مباشرةً وهو أن تُسلمني له مُقابل أن يساعدك في أن تكون شخص جديد ، بِمعنى أن عليهِ إحضار بطاقات هويّة مُزوّرة تجعلك شخص آخر ، وكذلك واحدة لـ "سوكا" وأيضًا "خالد" وبالطبع لي .

حتمًا سيسأل عن "خالد" ولماذا نُحضِر له بطاقة فتجيب أني مُصِرّ عليه وأعتبره صِمام أمان .
وإذا سألك عن جدوى تزوير بطاقة لي ما دمت سأموت في كل الأحوال ولن أحتاجها ، فتقول له أن هذا شرطي لأمنحك نصف ثروتي المُخبّأة ، وهو أكيد عَمَلَ عنّي كامل تحريّاته وعَلِمَ قصّتي .
في النهاية سيستجيب ..لتفادي ضوضاء الصِدام معك وأيضًا لأنه سيسعى للإستيلاء على الثروة .

- ها .. إيه رأيكم في الخِطة الحِلوة دي ؟ .

رد "خالد" بإقتناع : وليه نُطلب بطايق مُزوّرة ، ما هوَ يقدَر يجيب بطايق أصليّة طالعة مِن السِجل المَدني بختم النسر .. أنا معلوماتي إنه واصِل قوي وإيده طايلة .
هززت رأسي مُستحسِنًا الفكرة ، كذلك أبدى "بيبو" مُوافقته وهو ينظر في ساعته ليجدها قد تخطّت مُنتصَف الليل بقليل ، إتجه لغرفته مُشيرًا لـ "سوكا" أن تلحق بهِ .
سَبَقني "خالد" لغرفتنا وعندما لحِقت بهِ وجدته في فِراشِهِ يُدخّن سيجارة ببطء وتركيز .
ألقيت جسدي في سريري مُنتشيًا سعيدًا بخطتي ، وأني أخيرًا برهنت لهم على إمتلاكي عقليّة لا تقِل عنهم ، وأنني لستُ الرجل الكبير "البَرَكَة" صاحِب المال فقط ، إنما عُضوٌ هام بالفريق .
أرخيتُ عينيّ مُحاولا إستدعاء النوم ، فسمعت صوت "خالد" هامسًا :

- خطتك حِلوة يا "حمدي" ، بَسْ للأسَف مِش مقفولة .. فيها ثغرة.

نظرت له بترقب ، دنا برأسهِ مِن أذنيّ وهو يهمس قائلا :

- إنتَ واثِق في "بيبو" بنسبة كام في المِيّة .

ألقى قنبلته وعاد إلى فراشِهِ ولم ينطِق بعدها .

ـ ٦ ـ

إستيقظتُ في التاسعة مِن تِلقاء نفسي ، لَم أنعم بنومٍ هادئ نهائيًا ، كلما أتاني النوم لدقائق داهمتني معهُ الكوابيس ، تارةً أحلُم أن "التاجي" يقف فوق رأسي ويُفجّرها برصاصهِ ، تارةً أخرى أحلم أن الشرطة تُداهم المنزل وتُلقي القبض علينا بتهمة قتل اللواء "البدران" ، إنما الكابوس الأخير وهو أكثرهم قسوةً ووضوحًا لِذا لم أستطع النوم بَعده ، رأيتُ "بيبو" و"سوكا" جالسان مع "التاجي" في حديقة فيلته بجوار حمّام السِباحة ، وهم يحتسون الخمر بعدما إتفقوا على الغدر بي .
ظَللتُ قابعًا في فراشي أتمنى أن تمرّ الدقائق بسرعة ، لكنها عاندتني ومرّت بطيئة مملة .
أخيرًا في الحادية عشرة سمعتُ صوت "بيبو" يدندن في الصالة :
- أنا إللّي الدهر عاداني وباعني وإشترى فيّ .. وخد أحبابي وإدّاني بدلهم ظُلم وآسِيّة .
كان صوته سيىء كالعادة لكنه ليس مرحًا كسابق عهده ، صوتًا ملئ بالشجن وهذا ليس معتادًا ، وأيضً لم يُشّوه التراث ، فقد دندن بها كاملة كما غناها الفنان "عبده السروجي" دون تلف أو تغيير .. بدأت أشعر بالقلق عليه .. يبدو أنه بَلَغَ مِن التوتر مبلغه .
- لو بتعمل شاي .. إعمل حِسابي معاك يا "بيبو" .
هكذا قُلت مُتجهًا إلى الحمّام ، ثم أضفت بلهجة خاصة :
- عشان يبقى عيش وملح وشاي .
لم يردّ ، ولم يعايرني بكثرة إنفاقه ، أين ذَهَبَ لِسانه الحاضر دائمًا ، مِن الواضح أن تركيزه ليس على ما يُرام ، خرجت فوجدته جالسًا في الصالة أمامه كوبا شاي وبعض قِطع البسكويت ، جلست بجواره وبعد فترة صمت ليست قصيرة همست في أذِنهِ بمزيج مِن التحذير والإستعطاف :

- أنا عارف يا "بيبو" إن جوّاك إنسان كويّس ، فبلاش تِعمل حاجة تخليك تكره تِبُصْ لنفسك في المراية وتقول ياريتني ما بِعْتْ حد آمن لي وماكنش عايز مِنّي حاجة غير إني أحميه .

رفع عينه تجاهي قبل أن يسأل بهدوء : إنتَ ليه بِتشُك فيّ يا عم "حمدي" ؟ .

- لأني حاسِس إنك بني آدم نضيف لكن بتعاني مِن صِراع نفسي و .. .

قاطعني بحِدّة أن لا داعي لهذا الهُرّاء ، ولا يوجد صِراع نفسي ولا يحزنون ، كل ما في الأمر أن أوّل شِجار يحدث بيني وبين "سوكا" قد حَدّثّ بالفعل وكان ليلة أمس ، عندما سألتها ببلاهة :

- "سوكا" .. إنتِ طلبتِ مِن عم "حمدي" إنه يضغط عليّ أتجوزّك.

أطلق زفرة مُلتهبة وهو يسترسل .. يبدو أنني قد خانني التعبير في كلمة "يضغط عليّ" ، فقد إعتبرتها إهانة بالغة ، وليتها ردّتها بمثلها أو أكثر ، إنما وضحت الصدمة على وجهها قبل أن تُدير ظهرِها وتبكي ، لم تَقُلْ سِوى جملة واحدة .." هوّ إنت عايز حدْ يضغط عليك عشان توافق تتجوّزني .. هوّ أنا رخيصة قوي عندك كِده" ، عبثًا حاولت أن أصالحها بلا جدوى .

ثم دفن "بيبو" وجههُ بين يديهِ مُستطردًا .. تخيّل ، هذه أوّل مرّة تحدث مُشكلة بيني وبينها تصِل لمرحلة أن تنام باكية .. بسببي أنا ، تخيّل ! .

هززت رأسي بأسف سائلا :

- وإنتَ ليه يا فالِح إتكلّمت معاها في الموضوع ده ؟.

- ماعرفش ..هى جات كِدَه مع إني كنت والله العظيم ناوي أجيبلها شَبْكِتها أوّل ما العمليّة تخلص.

يبدو أن عين الحسود أصابتهما ، ويبدو أيضًا أنني هذا الحسود ، قبل أن أقول شيئًا وجدت "خالد" خارج مِن غرفته ، أشار "بيبو" إليّ بمعنى أن

غيّر الموضوع ، بالفعل إصطنعت الحديث في أيّ شيء حتى خرج "خالد" مِن الحمّام قائلا بصرامة :

- ياالله ننزل يا "حمدي"، لازم نبقى بعيد عن البيت لمّا "بيبو" يروح له ..مفيش حاجة مضمونة .

هزّ "بيبو" رأسَه مُوافقًا ، مع خروج "سوكا" مِن غرفتها ، كانت شديدة الأناقة وهى ترتدي سِروال أسود ضيّق نوعًا ما ، وعليهِ جاكت أحمر داكن ، إستخدمت أدوات تجميل خفيفة زادتها جمالا على جمالها الأخّاذ، يبدو أنها تريد أن تُشعِرهُ بالجوهرة التي هو على وشَكْ خسارتها .

نظر "بيبو" لها قائلا بصوت حاول أن يجعلهُ مُداعبًا : إيه يا قلب قلبي الجمال ده كله ؟ .

لم تُجِبهُ وإنما أخرجت هاتفها وأجرت مُكالمة مع "هدير" لتطمئن على إبنتها ، عدّل هندامه وهو يسأل "خالد" عن المكان الذي سنتجه إليه ، فأعطاه ورقة كتب عليها رقم هاتفه وهو يقول :

- خلّص معاه وكلّمني وأنا لو لقيتك إتأخّرت .. هتصرّف بمعرفتي.

هز "بيبو" رأسَهُ بلا معنى ، فإستطرد "خالد" مُحذرًا بلهجة ذات مَغزى:

- خُد بالك يا "بيبو" وإنتَ بتتعامل مع "التاجي" .. أصله خاين بالفطرة ، ده راجِل خان اللواء بتاعه .. والجهاز إللّي بيشتغل معاه .. والبَلد كلها ، خد بالك وإنت بتتعامل مع واحد غدّار زيّ ده .

جاوبهُ "بيبو" بإقتضاب :"ماتقلقش" ، ثم أخذ "سوكا" وإنصرف ، بعدها بدقائق نزلت مع "خالد" مُتجهين لإحدى مقاهي وسط البلد .

كنت أعلَم أني لو إلتزمت الصمت فربما مكثنا صامتين للأبد ، لذا نظرت إليهُ سائلا بهدوء :

- ممكن أعرَف إنت بتفكر في إيه ؟ ، أصل لمّا إتنين يفكرّوا بالتأكيد أحسَن مِن واحد لوحده .

أشعل سيجارة وهو يرد بصرامة :

- أيوه .. أقولك أنا بفكّر في إيه وإنت تروح تقول لـ "بيبو" .. مِش كده ؟ .
- ليه .. ده على أساس إنك مِن جيش العدو ، مالك يا "خالد" ما إنتَ عارف إن وجودك يهمّني .

رد بريبة .. أني سمعتكم في الصباح تتهامسون ولمّا رآني "بيبو" أشار إليك بتغيير الموضوع وأنت وافقت ، وهذا لا تفسير له سِوى أنكم تُدبّرون أمرًا ما في الخَفاء .

هكذا الأفاعي دائمًا ، لا تثِق في بعضِها أبدًا ، لكننا على بُعد أمتار مِن خط النهاية ، ولو إستمرّ مُسلسل التخوين كما هوَ فربما لن ندركها أبدًا.. على قيد الحياة .

- يا "خالد" والله العظيم كنت بتكلم مع "بيبو" في موضوع مايُخصّكش خالص .

جاوبني بنظرة شك لم يُحاول إخفائها ، فإضطررت أن أستطرد قائلا :

- مِن الآخر كده في مشكلة حَصَلِت بينه وبين "سوكا" وهو مِش عايزك تعرفها ..دي كل الحكاية.

هذه المَرّة حاول إخفاء نظرة الشَك لكنه لم ينجح ، طلبت القهوة ونحن ندرس جميع الإحتمالات ، أصرّ "خالد" على أن الإحتمال الأرجح هو حدوث خيانة ، وأن "بيبو" و"سوكا" سيتفقا مع "التاجي" لأن هذا سيَصُب في مصلحتهم جميعًا ، "بيبو" يمكنه التفاوض على مُعظم الثروة، و"التاجي" يُهمّه في المقام الأول التخلص منك ، وإن فاز أيضًا بجزء مِن الغنيمة .. فلا بأس .

- طيّب وإحنا هنعمل إيه يا "خالد" لو ده حَصَلْ؟ .
- ولا حاجة .. لازم أكون أسرع منهم .

ثم إستطرد مُوضحًا .. في صِراع كهذا لا توجد ضربة ثانية ، مَن يضرب الأولى لن يكون بحاجة لضربة أخرى.. واحدة تكفي لإنهاء المعركة ،لذا يجب التحلّي بأقصى درجات التركيز والسرعة .

إستمر حديثنا لفترة طويلة وخَرَجت مِنهُ بنصيحة أن أستعد جيّدًا ، كما خَرَجت بإنطباع يُفيد أن "خالد" لا يضع نيّة الغدر بي ضِمن أولويّاته .. هذا شيء جيّد في حد ذاته .

مع دقات الرابعة عصرًا دق هاتف "خالد" الذي رد بإقتضاب :

- ماشي .. إسبقني على البيت وإحنا هنحصّلك .

في طريق عودتنا رأيت التحفّز واضحًا على وجهه في حين كان بداخلي إحساس مُتضارب أشعر أن "بيبو" سيغرز أنيابه في عُنقي ويبث سِمّهُ فور رؤيتي ، كذلك أحِس أنه ليس بهذا السوء .

وصَلنا الشقة لنجد "بيبو" ينتظرنا مُتجهّمًا ، أين ذهبت ضِحكتهُ وروحه المرحة ؟ ، لكن الوقت غير مُناسب لسؤال كهذا ، الوقت مُناسب فقط لسؤال واحد : ها يا "بيبو" .. عملت إيه ؟ .

أشعل "بيبو" سيجارة ، أخذَ يُنفث دخانها بهدوء .. وصلت قصره في الميعاد ، كان الحَرَسْ في الإنتظار عند البوابة ، إصطحبوني مع "سوكا" إلى تكعيبة بجوار حمّام السِباحة حيث كان هناك ، قبل أن أجلس كان يسألني عن ما أعرفه ، أجبته ببساطة أني على دراية بكل شيء ، بدايةً بقتلك اللواء "البدران" ثم إسقاطك لعسكري برج المُراقبة ودورك المحوري في الهروب الكبير، نهايةً ببحثك الدؤوب عن عم "حمدي".

رد "التاجي" بعجرفة انه أيضًا يعرف أين نختبئ وبإمكانه إلقاء القبض علينا وقتما يشاء ، لكنه فضّل التعاون معي لأنه لا يريد لَغَطْ كثير بهذا الشأن .. يُفضّل نهاية صامتة .

تدخّل "خالد" في الحديث بخشونة :

- كدّاب .. هو مايقدرش يُقبض علينا لأنه عارف القلق إللّي هعمله، وكمان عينه على الفلوس .

وافقه "بيبو" بإيماءة مِن رأسه ثم إستطرد .. بالطبع سأل عن علاقتنا بحضرة الضابط السابق ، أجبتهُ كما إتفقنا وهو أن "حمدي" فرَضَهُ علينا لأنهُ لا يثق فيّ بالكامل ، أخيرًا شرحت له ببساطة أن عليهِ إحضار

أربعة بطاقات هويّة لأني لن ألمس المال قبل أن تستلم بطاقتك وبطاقة "خالد" .
هنا سألتهُ بترقب وماذا فعل ؟ ، أطفأ "بيبو" سيجارتهُ ثم أجاب .. في البداية حاول التهرّب مُتعللا أن هذا مستحيل خاصةً مع عدم الإستقرار الموجودة ، ردّت "سوكا" أن حالة عدم الإستقرار هذه هى أنسب فرصة لتنفيذ شيء كهذا ، أخيرًا .. وافق وأخَذَ صوَرَكم الشخصيّة وقال أن بَعد ثلاثة أيام ستكون معنا البطاقات ، الآن نحن لا نملك سِوى الإنتظار حتى يُجهّز الاوراق ثم نبدأ النهاية .
شعرتُ أن "بيبو" شارد جدًا ، حتمًا مشكلتهُ مع "سوكا" تُلقي بظلالها و.. ما هذا .. أين "سوكا" ؟
- هى "سوكا" فين يا "بيبو" ؟ .
- هتنام عند "هدير" النهاردة .
تبادلت نظرة سريعة مع "خالد" الذي تثاءب قبل أن يقول أنه ذاهب لفراشه ، كذلك فعل "بيبو" ، تباطأت قليلا ثم لحقت بـ "بيبو" في غرفته، أغلقت بابها وسألته : هى "سوكا" لِسّه زعلانة ؟ .
سَرَحَ لحظات ثم أطلق زفرة كالحِمم : الموضوع بيكبر قوي يا عم "حمدي" .
وأطل التردد مِن عينيه برهة قبل أن يقول كَمّن يتخلص مِن حِمل ثقيل :
- "التاجي" إبن الجزمة قاعِد بيلاغيها بعينيه قُدّامي .. بَس مِش دي المشكلة ، المشكلة إنها ماعملتش أيّ حاجة ، لأ ده ساعات كانت بتسبّل له هى كمان .
يا الله .. ليس هذا وقت للمزيد مِن الإنشقاق في الجبهة الداخليّة ، كدت ان أصرخ مُصرّحًا أن تبقى أمتار على النهاية يا أوغاد ..وجبهتنا تزداد تفتيتًا .
حاولت تهدئتهُ قائلا بلهجة صَبغتها بالمرح بصعوبة :
- دي بتسخنك يا عبيط ، عايزة توصّل لك إحساس إنها ممكن تضيع مِن إيدك .. عشان تتحرّك .

هز رأسه نفيًا بغضب وهو يقول :

- لا يا عم "حمدي" ، "سوكا" مِتغيّرة فعلا ، ده أنا كنت هبوس رجلها عشان ترجع معايا البيت ، وهى صمّمت تزُوح لبنتها .. "سوكا" إللّي كانت بتتمنى لي الرضا !! .

ثم مَسَك هاتفه وطلب رقمها لكنه وَجَد الهاتف مُغلق فنظر لي بعيون مُحتقنة ،حاولت تهدئتهُ قائلا:

- أصبر يا "بيبو" إن شاء الله بعد ما العمليّة تخلص .. كل حاجة هترجع أحسن مِن الأوّل .

لم يُبدِ أيّ رد لكلامي سِوى أنه إستلقى في فراشِه وأولاني ظهره كأنه يُعلن نهاية الحديث ، ربت على كتفه قائلا : تِصبح على خير .

عُدت إلى غرفتي حيث كان "خالد" راقدًا في فراشِه معقود الحاجبين مُتحفّز ، بدّلت ملابسي وإستلقيت في فراشي فإذ به يقترب مِني هامسًا بصوت كالفحيح :

- بعد تلات أيام هننفذ يا "حمدي" ، طبعًا إنت فاكر كويّس مكان الفلوس .
- طبعًا .

إبتسم بثقة وهو يقول :

- تمام .. زيّ ما قُلت لك ، خلّي عينيك في وسط راسك ، أصل الأكيد إن في حد هيتغدَر به في اليوم ده ، حاول مايكونش إنتَ.. فاهم ؟ .

ألقى عبارته ثم إستلقى في فراشِهِ نائمًا ، دقائق وسمعت صوته كأنه يغطّ في سُبات عميق ، نظرت ناحيته فوجدت عيناهُ مفتوحتان .. لاأدري هل هى ليست مُغلقة فعلا ، أم انهُ ينام بعيون مفتوحة دائمًا .. كالأفاعي .

ـ ٧ ـ

مَرّت الأيّام الثلاثة هادئة على عكس ما توقعت ، أو هوَ السكون الذي يسبق العاصِفة ، لم يحدث شيء يُذكَر سِوى أنني حاولت الإتصال بـ "سوكا" مِن خطوط مُختلفة ولا مِن مُجيب ، سألت "بيبو" عنها قال أنها لا تردّ عليهِ أيضًا ، إقترحت أن أذهب معهُ لرؤيتها عند "هدير" لكنه فضّل الذِهاب بمفرده لأن العلاقات بينهما لم تصِل لهذا السوء بَعدْ .
إرتدى ملابسهُ وحاول أن يكون في أقصى درجات أناقته ،بعد نزوله وجدت "خالد" يقول بخبث :

- إنتَ يا "حمدي" مِصدّق إن فعلا حَصَلَ مشكلة بينه وبين "سوكا" !.. ده أكيد فيلم عاملينه سوا .
- وهيعملوا الفيلم ده ليه ؟ ! .

هزّ كتفيه بلامبالاة مُردِدًا ببرود : أكيد بيدبّروا حاجة .. الله أعلَم .
لمّا عاد "بيبو" للمنزل ومِن إنحناءة ظهرِه ، عبوس وجهه ، إحتقان وجنتيه ، سيجارته التي لا تنطفئ ، كلها دلائل تُشير أن هذا الرجل يُعاني فعلا ، وأن أيّ حديث عن مؤامرة هو مِن وَحْيْ خيال "خالد" ولِمَ لا .. فهو مِن نفْسْ الفصيلة .
إنفردت بـ "بيبو" وسألته عن ما حَدَث ، رد بإقتضاب أنها قرّرت عدم الحديث إلا بعد إنتهاء العمليّة ، هززت رأسي مُوافقًا فتأجيل معركة جانبيّة أفضل مِن خوْضَها الآن ، نُنهي عَمِلنا أولا ثم أحاول بَعدها توفيق أوضاعِهما .. إن كنت على قيْد الحياة .
أمس رنّ هاتف "خالد" لأوّل مَرّة ، نَظَرَ في شاشته مَليًا قبل أن يرد بحذر : أيوة مِين معايا ؟ .
إستمع بتركيز للحظات ثم ردّ بصرامة : تمام .. ساعة وأكون عندك .
إرتدى ملابسه بعُجالَه ونزل ، أتاني "بيبو" مُبتسمًا بمكر : هوَ "خالد" كان بيتكلم مع مِين ؟ .

أجبتَهُ دون مبالاة : يمكن أبوه أو أخوه .
رد بثقة : هوَ معقول مِش مِسجل رقم أبوه أو أخوه ؟! ، ثم دي أول مَرّة أسمع تليفونه بيرِن ، ده أنا حتى ماكنتش عارف إيه النغمة بتاعته !! .
ألقى عِبارتَه وتركني أشتعل تفكيرًا وذهَبَ يجلس أمام التِلفاز ، راقبت "خالد" بِشدّة بعد عودته مُحاولا قراءة أيّ إنطباع على وجهه .. دون جدوى ، ملامحهُ صلبة كالصخر لا تشي بأي إنفعال.
اليوم نحن بإنتظار مُكالمة "التاجي" ، نتبادل نظرات الترقّب والطموح ، لكن مُعظم النظرات المُتبادلة هى نظرات شَكْ للأسَف .
- "التاجي" إبن الجزمة عارف إن أعصابنا مَشدودة ، عشان كِده سايبنا نتحرَق .
هكذا قال "بيبو" بضيق ، ليرد عليهِ "خالد" بثقة :
- لأ .. هوَ برضه بيتحرَق زيّنا .. ده روحُه في إيدينا ، عشان كده يِهمّه الموضوع يخلص مِن غير شوْشَرَة ، أصل الداخليّة كلها نِفسَها تِعرَف مين إللّي قَتَل اللواء "البدران" .
جاء دوْري للتدخل في الحديث قائلا بحسم : وإحنا كمان رُوحنا في إيديه، هوَ يِقدر يخلّص علينا في أيّ وقت في أيّ وقت ، ده أنا مِستغرَب هو سايبني عيش ليه ! ؟.
رد "بيبو" بحسم : عشان الفلوس يا عم "حمدي" .
وافقهُ "خالد" وهذا نادرًا ما يحدث وهو يُضيف :
- بالظبط كده .. كمان هوَ حاسِس إن العمليّة مَحسومة ، إحنا بالنسبة له صِيد سَهل .
إندمجنا جميعًا في تفكير عميق قَطَعَهُ رنين هاتف "بيبو" الذي إنقض عليه بأمل مُتمتمًا : دي رنّة "سوكا" ثم دَفَعَ بأكبر درجة مِن العذوبة في صوتهِ قائلا : أيوَة يا قلب قلبي .
إنعَقَدَ حاجِباه بدهشة ثم إستطرد بتوتر : في إيه يا "هدير" .. إيه إللّي حَصَلْ ؟ .

أخذ يستمِع إليها مع زيادة ملحوظة في درجة إنعقاد حاجبيه حتى تخيّلت أنهما سيلتصقا ، ثم أنهى المُكالمة بعصبيّة قبل أن ينظر إلينا والغضب يعتصِر صَوتِهِ .. "التاجي" ذهب للمنزل عند "هدير" وطَلَبَ مِن سوكا النزول معه ، أطاعته وغادرا المنزل سويًا بالرغم مِن أن "هدير" عبّرت لها عن عدم إرتياحها لهذا الرجل ، لكنها قالت أنها تُدرك ما تفعل وإنصَرفت .
خَيّمَ علينا صَمت ثقيل لهذا التصعيد غير المُتوقع ، بعد فترة نظرت لـ "بيبو" قائلا بحسم :
- إفتح الإسبيكر وإتصل به ، إسأله "سوكا" بتعمِل معاه إيه ؟ .
بَرَقت عيناة كأنّه إستحسَنَ الفكرة ، أمسك هاتفه ووضعها موضع التنفيذ، لحظات وسِمعنا صوت "التاجي" يرد عليهِ ببرود ، عاجله "بيبو" بإضطراب يسأله عن "سوكا" ليرد عليهِ :
- مالك يا "بيبو" صوتَك خايف كده ليه ؟ ، أيوه يا سيدي "سوكا" معايا .. عندك مانِع ؟! .
بُهِتَ "بيبو" ليسَ مِن ردّه وإنما مِن لهجة الإستفزاز الواضحة في كلامِهِ، لكنه رد بتحدّي :
- لا أنا مِش قلقان ولا حاجة ، طيّب طالما معاك.. هاتها أكلمها .
سمِعنا صوتها تقول بنعومة : أوّل مَرّة ألاقي صورتي في البطاقة حِلوة.
جاوبها بنعومة مماثلة : بَسْ الأصل أحلى بكتير ، آه صحيح كنت هنسى.. "بيبو" عايز يكلمك .
لحظات وأتانا صوت "سوكا" .. نعم ، سألها "بيبو" بلهفة : إنتِ كويّسة؟.
ردّت بهدوء : أيوة أنا تمام ، الباشا جايب لي قهوة وإحنا بنشربها في العربيّة .
يبدو أن "التاجي" أخذ منها الهاتف بعد هذه الجملة ، فقد فوجئنا بصوتِهِ يقول بلهجة آمرة :

- الساعة دلوقت خمسة ونص ، يعني زمان بطايقكوا وصلت تابلوه عربيتك ، قول لـ "حمدي" إن البطايق معاك وخُدُه عشان تجيبوا الفلوس الليلة .

قبل أن نُفكر في ماذا نقول ، إستطرد بصرامة :

- أنا عارف إن أرضه في عِزبة جنب "نبروة" محافظة "الدقهليّة"، يعني ساعتين وتكون هناك .

بدأ "بيبو" يتمالك أعصابِه ، فأشعل سيجارة وهو يسأله بهدوء :

- طيّب بعد ما نوصل ونطلّع الفلوس .. ألاقيك إزّاي ؟ ، ما طبعًا ماينفعش أتصّل بِك وهمّ معايا .

رد "التاجي" بإستخفاف : تلاقيني !! ، لا ما تقلقش .. أنا إللّي هجيبك .

ثم أغلق الخط بغتّة ، فثبتنا في أماكننا كالتماثيل ، بعد حوالي دقيقة قال "بيبو" بحنق :

- يعني نزلت معاه بمَزاجها ، وكمان بيشربوا قهوة وبيدّلعوا على بعض .. والله عال يا "سوكا" .

تدخلت على الفور مؤكدًا أن "سوكا" لم تنزل معه بإرادتها بدليل نسيانِها لهاتفها في المنزل ، أيضًا تحاول أن ترشِدنا أنه مُتجه للتمركز بالقرب مِن مكان الثروة لأنها وضّحت كونهما سويًا في سيّارته ولا داعي للشك لأنها تلعب معنا وليس معه ، وافقني "خالد" مُشيرًا أن علينا الإتجاه إلى هناك فورًا لأنه بالفعل سَبقنا بِخطوات ويجب أن نتحرك بسرعة ، إبتسم "بيبو" قائلا له بلزوجة :

- طيّب ياالله غيّر هدومك يا باشا .. وإوعى تنسى المُسدّس إللّي جِبتهُ معاك وإنتَ راجع إمبارح .

نَظَرَ له "خالد بدهشة كذلك فعلت وأنا أردد ببلاهة : "مسدس" ، فاجأتني نظرة الإرتباك والتعجّب في عينيه مما يؤكد أن كلام "بيبو" سليم وأن هناك إستعدادات عسكريّة تجري في الخَفَاء وهذا أيضًا يُشير أن الشك بيننا تخطّى الإحساس والنظرات وبدأ يدخُل مراحِل متطوّرة .

رد "خالد" مُحاولا صبغ صوتِهِ بالصرامة :

- هوّ إنت تكره إن يبقى واحد مِن فريقك معاه سِلاح وإحنا طالعين نِصطاد .. ده المفروض تِفرح.

رد "بيبو" مُتجهًا لغرفته دون أن ينظر إليهِ :

- ما أنا فرحان فعلا .. مِش باين عليّ الفرحة ولا إيه !.

لم أتدخل أو أناقش "خالد" في أيّ شيء خاصةً ونحن مُقبلين على معركة لا أدري تحديدًا أطرافها ، مِن المؤكّد أن "التاجي" ضِدّي ، لكن تُرى هل "التاجي" وحده ؟ .

نظرت لـ "خالد" الذي يرتدي ملابسه وبعينيّه نظرة تحدّي وتصميم ، كذلك كان "بيبو" تمامًا .

أمّا أنا فكنت أستعد كما يستعد مريض لإجراء جراحة صعبة نسبة نجاحِها ضئيلة ، جراحة يتحدّد بعدها أن يُشفى بالكامل أو يموت دون جنازة أو مَراسِم ، يموت .. في صمت .

_ ٨ _

دقائق وكنا داخِل سيّارة "بيبو" الذي فتح التابلوه بلهفة ليجد ثلاثة بطاقات هويّة واحِدَة لكلٍ مِنّا ، تأمّل بطاقتهُ ثم قال بتهكّم :

- يعني عَرَفْ عربيتي وبَعَتْ واحد يفتحها ويسيب البطايق فيها ، كِدَه يبقى بيعلّم عليّ .. صح ؟ .

رد "خالد" بجديّة : كمان عَرَفْ يجمّع معلومات بسرعة ووَصَلْ لعنوان "هدير" وراحْ لها .

حاولت أن أبدو مُتهكمًا مثل "بيبو" وأنا أقول : ده شكله تِعبان شديد قوي بقى .

لم يُعلقا على تهكمي أو مُحاولتي إدّعاء الثقة ، خيّم الصمت طوال الطريق ، كلٍ مِنّا يُفكر بمفرده .

أرى أن "بيبو" مُشتّت بصورة واضحة نظرًا لعدَم وضوح موقِف "سوكا" ، كما أن إمكانات "التاجي" العالية بالتأكيد أثارت الرهبَة في نَفسْ "خالد" بدليل نظرة التوتّر والترقّب في عينيه .

إنما لو وَصَفت حالتهم بالمُضطربَة ، فأقل وَصف لحالتي أنها مُتردّية ، أجلس في المِقعد الخلفي وكلّما نظرت ناحيتهما شاهدت زوج مِن الثعابين يتبادلان نظرات الشك وكلاهما يتمنى إقتناص الآخر .. فقط ينتظر الفرصة ، وأعلم أن الفائز سيلدغني فور إنتهائه ، وإن لم يفعل فـ "التاجي" سيفعل ، كأنّي أنزِلق بحدّة على مُنحدّر ولا سبيل للتوقف .. أو الرجوع .

قبل الثامنة بدقائق كنت أُشير على طريق فرعي ضيّق :

- آخر الطريق ده يا "بيبو" هتلاقي أرض فاضية على يمينك .. إركن فيها .

لحظات وكان يضع السيّارة حيث أشرتُ قائلا :إيه رأيَك في ركنتي ، مُجرِم سِواقة أنا ..مِش كده؟

عن أيّ مهارة في القيادة يتحدّث ، المكان يتسِع لعشر سيّارات وإن كان هذا لا ينفي أنه سائق ماهِر بالفعل ، مما جعلني أتعجّب مِن قدرة "بيبو" الخارقة على المَرَحْ ، حتى في أحلَك المواقف .
أشرتُ لهما على طريق ضيّق متلوّي بين الزراعات ، كأنهُ سِرداب فوق الأرض :

- بعد المَشّايَة دي هنلاقي ساقية جنبها شجرتين ، الفلوس مدفونة تحت الشجرة إللّي على اليمين .

نزل "خالد" ولَحَقَ به "بيبو" الذي أخرَجَ ثلاثة معاول مِن حقيبة السيّارة، أعطى واحد لكلٍ منا :

- يالله بقى عشان نِعزَقْ الأرض ، محلاها عيشة الفلاح .. حشيش ومانجا وتفاح .

بالطبع لم أُصحح له شيئًا ، أخذتُ معولي في يدي وتقدّمتُ المَسيرة ، بجانب الساقية أشرتُ على بقعة بجوار إحدى الشجرتين ، رَبت "خالد" على كتفي قائلا بمزيج مِن الإستفهام والوعيد :

- متأكّد يا "حمدي" .. عشان بَسْ مانحفرش على الفاضي .

أومأت إيجابًا قائلا في محاولة لتخفيف التوتر:

- عارفين .. أنا فرحت قوي لمّا لمحت أنوار الفَرَح إللّي عدّينا عليه في السِكة ، أصل ده معناه إن مُعظم شباب البلد هتبقى هناك والدنيا هترُوق هنا ، حسّيت ساعتها إن ربّنا هيكرمنا .

كأني أحادث نفسي ، لم يلتفت أي منهما ناحيتي ، إنما إنقضّا حيث أشرت وشرعا في الحفر بقوة وحماس ،الحمد لله أنهم أعفوني مِن عناء الحفر إحترامًا لِكِبَر سِنّي أو ربما مِن فرط الرحمة بي ، فما داعي إرهاق شخص على شفا الموت ، تلفت حولي متسائلا ..تُرى مِن أين تأتي الرصاصة.
بعد حوالي عشر دقائق سمعنا صوت إرتطام معوَل "خالد" بشيء مَعدني، فقال "بيبو" مُحذرًا :

- حاسِب يا باشا لا تِكسَر الشنطة .

ثم إلتفَتَ ناحيتي مُتسائلا : هوّ إنتَ حاطِطْ الفلوس في كام شنطة يا عم "حمدي" ؟ .
إبتسمت قائلا ببطء : تلاتة .. كل شنطة فيها تلاتين مليون جنيه .
دبّ الحماس في سواعِدهم أكثر ، بعد دقيقتين أخرج "خالد" أوّل حقيبة ، بخفّة قَفَزَ "بيبو" في الحفرة ، وبمساعدة "خالد" أخرج الحقيبة الثانية ثم الثالثة .
وضعنا الحقائب الثلاثة بجوار الساقية وألقينا المَعاوِل جانبًا ، أخذنا ننفض التراب العالق بنا ، فجأة سمِعنا صوت تكّة واضحة ، تِلك التكّة المميزة لصوت سحب الأجزاء في سِلاح ناري .
إنقضت العيون ناحية مدخل المَشّاية ، فوجدنا "التاجي" آتيًا وعلى شفتيهِ إبتسامة واثقة ، وخلفهِ بخطوة تمشي "سوكا" ، رأيناهم بوضوح لأن تِلك الليلة لم تكن ظلماء للأسف إنما مكتملة التَمام .
نفس الوجه الذي رأيته مِن بضعة أشهُر ، نفس السِلاح المُمتد الذي خرج مِنه عدّة طلقات في ظهر رجل شريف ، نفس الإبتسامة الغادرة ، وربما نفس الحُلّة التي كان يرتديها .
أمرَنا "التاجي" بصرامة أن نقف في صف عند الحفرة ، رد "بيبو" بصوت بهِ لهجة إستخفاف :
- ليه ؟ .. هناخد صورة للذكرى ؟ .
تراقصت على شفتي "التاجي" إبتسامة ساخرة قبل أن يُشير لـ "سوكا" إشارة ذات مَغزى ، على أثرها مَشَتْ بخطوات بطيئة نحو "بيبو" ثم عانقته وهى تهمس في أذنه بنعومة .. وحشتني .
كدت أفقد الوعيْ ، ليس لأن هذا توقيت خاطئ للعناق ، وإنما لأني رأيتها تَمِدّ يدها بخفة في خِصر "بيبو" وتنتزع فَرْدْ الخرطوش ثم تجفِل خطوتان للوراء قبل أن تعود إلى جوار "التاجي".
إرتسمَت أقصى آيات الدهشة والإرتياع على وجه "بيبو" الذي غمغم بذهول .. مستحيل .

ردت عليهِ بنبرة تحدّي : المستحيل يا بيبي إني أفضل طول عُمري متعلقة بحبال الهوا الدايبة .
ثم ربتت على كتف "التاجي" مُستطردة :
- الباشا هيدّيني خمسين مليون وعليهم عقد عُرفي كمان .. والنبي أنا صَبَرت وربّنا كَرَمْنِي .
للمرّة الأولى أرى الدموع تترقرق في عينيّ "بيبو" الذي يُجاهد ليظل واقفًا على قدميه ، ثم أقدَمَ على أغرب فِعلْ يمكنني تخيّله ، إذ نَزَلَ في الحفرة بقدميه وهو ينظر لها مُغمغمًا .. مستحيل .
ثم نظر إلى "التاجي" قائلا كمّن يهذي : يالله إضرّب وخلّصني .
لكن "التاجي" تجاهلَهُ تمامًا ونظر إليّ ثم حوّل عينيهِ نحو "خالد" قائلا بلهجة آمرة :
- نَزّل "حمدي" جنبه في الحفرة يا "خالد" .
قالها بلهجة آمرة، كأنه يُصدِر تعليمات لجندي طوع بنانه ، إذن "خالد" باعني لكن كيف ومتى؟؟.
وضع "خالد" يدهُ على كتفي وهوَ يدفعني للحفرة بشيء مِن الخشونة :
- أيوة يا "حمدي" ، أنا إتفقت مع "محمد" بِك على كده ، هارد لَك بقى معلش .
تمالكت نفسي قبل أن أسقط في الحفرة التي كان عُمقها لا يصِل للمتر ، لِذا بعد وقوفي فيها بجوار "بيبو" ، صار صَدري في مستوى قدم "خالد"، تحاملت كي لا أنكفئ على وجهي ونظرات العجز والذهول تقفز مِن عينيّ ، أعلم تمامًا أن "خالد" أفعى مِثل الباقيين ، لكني وضعتَهُ في ذيل القائمة ، لم أتوقع مِنهُ أبدًا أن يلعب دور البطولة في مسلسل الغدر بي ، توقعتها مِن "بيبو" في المَقام الأوّل أو "سوكا" ، في كل الأحوال لن يحدث فارق كبير ، تعددت الأشخاص والغدر واحد .. أيضًا النهاية واحدة .
حاولتُ أن أقول شيئًا لكن الكلمات إحتبست في حلقي ، راودني فجأة نفسْ الشعور الذي شَعَرَ به "بيبو" منذ لحظات ، أن أطلب مِن "التاجي"

أن يُطلق النار علينا بسرعة ، أريد أن أنتهي مِن هذا الكابوس بسرعة ، أريد أن أرحل بعيدًا عن تلك الوجوه ، حتى ان كانت رحلتي إلى السماء.

بعد أن أنزلني "خالد" في الحفرة إلتفت ناحية "سوكا" قائلا بخبث :

- يا بنت الإيه .. عرفتي تلعبيها .. بِعتي الحب كله بخمسين مليون وعقد عرفي .

ثم حوّل عينيهِ بإتجاه "التاجي" قائلا بمكر :

- ليلتَك فُل يا باشا ، على فكرة دي هتروّقك على الآخِر ، والله ما كنت بعرف أنام مِن صُوتها .

بهدوء وبنفس الإبتسامة الواثقة وجّهَ "التاجي" سِلاحهُ نحو "خالد" قائلا بنفس اللهجة الآمرة :

- إنزِل جنبهم يا "خالد" .

فوجئت أن "خالد" لم يُظهِر أي إندهاش لهذا الغدر الصريح ، إنما أطلق ضحكة مجلجلة لم أسمعها أبدًا مِن قبل قائلا : والله كنت مُتأكد إنك هتعمل كِدة .

وبسرعة ربما أسرع مِن البرق ، أخرج مسدسه مُصوبًا إيّاهُ لـ "التاجي" مستطردًا :

- بَسْ بصراحة توقعت إنك تُحطّ "سوكا" معانا في الحفرة ، لكن يظهر إنها إحلوّت في عينيك .

إبتسم "التاجي" قائلا بسخرية : إيه ده ؟! .. إنتَ عرفت تتصرّف في سِلاح ، والله برافو عليك .

ثم إستطرد آمرًا : نزّل سِلاحك يا "خالد" بَدَلْ العمليّة كلها ما تبوظ .

- بَسْ أنا مِن رأيي إنك تِرمي مسدسك على الأرض .. عشان ماحدّش يتعوّر يا بيبي .

هكذا قالت "سوكا" وهى تُلصِق فَردْ الخرطوش التي سَحَبتهُ مِن "بيبو" بمؤخرة رأس "التاجي" .

أدمنتُ مفاجآت تِلك الفتاة ، منذ رأيتها وهى دائمًا تقول وتفعل ما هوَ عكس المُتوقّع ، إنما هذه المَرّة لم أُفاجأ وحدي ، فقد إرتسمت الدهشة الممزوجة بالسعادة على وجه "خالد" ، أمّا "بيبو" فقد دبّت الحياة في عروقِه وهوَ يقفز خارج الحفرة صائحًا بفرحة : هوّ ده .. آه يا قلبي يالّلي دايب .

حتى "التاجي" فقد إنفجرت المُفاجأة على ملامحه المُقدّة مِن صخر ، لدرجة أنه تمتم بذهول :

- تيجي مِنّك إنتِ .. آه يا بنت الكلاب .

لكن ثعبانًا أرقط مِثلهُ لا يستسلِم بهذه البساطة ، في الثانية التالية كان يستدير بسرعة مُوجهًا يسراه ضاربًا بها يدها المُمسِكة بالسلاح قبل أن يهوي على وجهها بصفعة مُدويّة ، ولم يُتابع سقوطها ، إنما عاد بعينه ناحية "خالد" ليُفاجأ بـــ "بيبو" قافزًا في الهواء ثم هبط بجسدِهِ عليه ويسقطا سويًا .

إستمات "التاجي" على يُمناه القابضة بالمسدّس ، كما إستمات "بيبو" عليها ليمنع توجيهها إليه .

وبقوّة رجل شرطة تربّى على العسكريّة وفنون القتال ، إستطاع "التاجي" دَفعْ "بيبو" مِن فوقه وقبل أن يعتدل إذ بقدم "خالد" تركل يُمناه بقوة أجبرته على إفلات المسدس .

في نفس الوقت الذي صعدت فيه مِن الحفرة ..شعرت أني سلحفاة ، فالأحداث تتسارع وجسدي لا يستطع مجاراتهم ، لما وصلت كان "بيبو" و"خالد" تمكنا مِن السيطرة عليه بعد أن وجّه "بيبو" له عِدّة لكمات قويّة وكبّل "خالد" حركته ، بأقصى قوته صاح "التاجي":ثانية واحدة .. إسمعوني.

مددت يدي مُحاولا إيقاف سيل اللكمات المُتتالي مِن "بيبو" ، ونظرت لـــ "خالد" الذي خفّفَ ضغطه عليه قليلا ، مَسَحَ "التاجي" بطرف كُمّه الخط الأحمر المُنحدِر مِن أنفه وبَصَقَ بعض الدماء قبل أن يتكلّم بصعوبة : إحنا مُمكن نِتّفق ، أصل لوقتلتوني الدنيا هتِتقلِب عليكم ، في ناس

عارفين إني معاكم هِنا ، لو حَصَلْ لي حاجة .. يبقى مفيش غيركم إللّي عَمَلها .
صَمَتَ لحظة ثم إستطرد مُتألمًا : بَسْ لو إتفقنا ممكن كلنا نعيش ، إنتوا تاخدوا الفلوس وبألف سلامة ، وأنا أرجع مكاني وكأننا ما إتقابلناش .. ويبقى يا دار ما دخلِك شر .
إذن "التاجي" يُناور مُناورتِهِ الأخيرة ، يحاول التهديد بما يُمكن حدوثِه ، لمنع ما لابد أن يحدث بالضرورة ، تجاوبت مع حديثِهِ ثم ضحكت بتهكم قائلا : يا راجل !! .
أمّا "سوكا" فقد أجهضت مُناورته عندما قالت بثقة مُتحسسة أثَرْ الصفعة على وجهها :

- كدّاب يا بيبي ، أنا كنت جنبك وإنت بتداري على كل الناس مكانك .. مِش عيب واحد في مركزك وقيمتك يبقى كدّاب .. إخص عليك .

جاوبها "بيبو" بطريقة عمليّة ، إذ ركلهُ في وجههِ بقوة : أصلا ماينفعش يعيش بعد ما مَدّ إيده إللّي تنقطع عليكي يا قلب قلبي .
أكمَل "خالد" على حديثِهِ مؤكدًا بصرامة : ماينفعش يعيش لأنه هيفرمنا أوّل ما يقف على رجليه .
هكذا إتفق الجميع على النهاية التي تمنيّتها ، بالرغم أن حياتي تعتمد في المقام الأوّل على التخلص مِنهُ ، إلا أني شعرتُ بالغثيان عندما إنقض "خالد" عليهِ بضربة قوية على مؤخرة رأسِه ، فقد بعدها الوعيْ جزئيًا ، وببساطة سَحبَه مِن ذراعه بمساعدة "بيبو" حتى ألقياه في الحفرة .
ودون ذرّة تردد أخذَ كلٍ منهما مِعوله وأعاد ردم الحفرة وهو داخلها .. حيًا .
لدقائق أخذت أراقبهم مشدوهًا ، شعرتُ أنهم يمارسوا عملهم بإستمتاع ، يُهيلوا التراب عليه بحماس لاعب يُسدد كرة في مرمى خالي .. ليمُزّق الشِباك .

- قطيعة .. ماحدّش بياكلها بالساهل .

هكذا علقت "سوكا" وهى تُشعِل سيجارة ، كأنها تُشاهِد جزء مِن مسرحية "ريا وسكينة" ، لم أستطع منع نفسي مِن التطلع لها بإعجاب واضح ، لِذا مَنحتني إحدى إبتساماتها الساحرة قائلة :

- بَدَلْ ما تلاغيني بعينيك ، إقرا الفاتحة على المرحوم .. يا عيني مات وكان نِفسه في ليلة حمرا .

ضحك "بيبو" قائلا : ليلة حمرا كِده مَرّة واحدة ، الله يخرب بيت الفياجرا .. مِن أوّل ما طلعت .. والأرانب كلها فكّرت نفسها رجالة .

أخذنا الحقائب وإتجهنا للسيّارة التي إحتل "بيبو" مقعد قيادتها وجلست "سوكا" بجانبه ، في حين جلس "خالد" بجواري قبل أن يهمس في أذني:

مِش قُلت لك لازم حد يتغدَر به الليلة دي .

تجاوبت معهُ بإيماءة وأنا أحمِد الله أن الأفاعي الثلاثة إختاروا عن طيب خاطر الغدر بعدوّي .

بالرغم مِن محاولته شِراء كلٍ منهم على حِدَة إلا أنهم إختاروني أنا وليس هوَ .. هذا شيء جيّد ، يبدو أنني سأعيش ، إذن حان وقت السؤال الذي أجّلتهُ طوال الفترة الماضية .. ماذا بَعدْ ؟ .

ماذا بَعد أن يتركوني أعيش ؟ هل أستخرِجَ جواز سَفَرْ بهوّيتي المُزوّرة وأحاول اللِحاق بزوجتي وبَناتي في "المانيا" ؟ ، حتى إن حاولت فأنا لا أعلم لهم عنوان هناك .

ولأكن مَنطقيًا ، هل تِلك الجاحِدة تستحق عناء البحث عنها لأقضي أيامي المُتبقية مع كآبتها ، هل بناتي الأكثر جحودًا مِن أمهم يستحقون كل هذه المشقة ؟ ، لازال السؤال يتردد بقوة ، ماذا بَعدْ ؟ .

- في مشكلة يا جماعة .

أطلق "خالد" هذا التصريح لتلتفت العيون كلها إليه ، إستطرد مُوضحًا .. أن إختفاء رجل بحجم "التاجي" لن يمُر بسهولة أبدًا ، فهو لازال في الداخلية وإن كان مكروهًا ، هذا سيجعلهم يُنقبون الأرض بحثًا عنه ، علاوة على أن سيارته موجودة بالقرب مِن هُنا ، وربّما يُسفِر البحث عن خيط يدلّهم علينا ، ولن تنفعنا وقتها الهويّات المُزوّرة .

ثم أكمَل بحسم : قضيّة زيّ دي لا يمكن تِتأيّد ضِدْ مجهول ، لازم يبقى لها كبش فِدا .
إبتسمت بحسرة قائلا : والله يا جماعة أنا بفكر أسلّم نفسي وأبقى أنا كبش الفِدا .
نظروا ناحيتي بتساؤل ، فأجبتهم بصوت خَرَجَ رغم مِنّي باكيًا .. طوال الفترة الماضية كان لدَيّ إحساس يصِل لحد اليقين أن أحدكم سيأخذ على عاتقه مُهمّة الغدر بي ، وإن لم يفعلها أحدكم فسيفعلها "التاجي" ، بالتالي ما جدوَى التفكير في الثروة ما دُمت لن أعيش لتحديد نواحي صَرفِها ، الآن بعد أن فاجأتموني بأخلاقكم الراقية ، لا أدري تحديدًا ما عليّ فِعله في أيامي الباقية ؟ .
وضحكتُ ساخرًا مِن حالي : ما حدْ مِنكم يقتلني وخلاص يا جماعة عشان أخلَص وأرتاح .
أشعل "بيبو" سيجارة قائلا :
- والله يا عم "حمدي" أنا بفكّر أقتلك مِش عشان الفلوس ، إنما عشان إنتَ كئيب قوي بصراحة .
إنتزعت "سوكا" السيجارة مِن شفتيهِ وسحبت نفسًا عميقًا قبل أن تقول :
- واللهِ صح يا "بيبو" وقال إيه بيقولوا النسوان بتحب النكد ، وربنا ده الرجالة هى إللّي آخر كآبة.
تجاوب معها "بيبو" : مِش كل الرجالة كئيبة يا قلب قلبي ، ما أنا قُدّامِك أهو .. حبّوب وزيّ الفل .
ثم نظر لي وغمَزَ بعينهِ قائلا : بالنسبة لخوفك مِن الوحدة يا عم "حمدي".. ماتقلقش ، أنا في دماغي مشروع حلو هيبقى سِتارة كويّسة للفلوس لو عايز تبقى معايا .. ماشي ، وعلى رأي الفنانة "صباح" .. خلّيك هِنا خلّيك .. بلاش تفارق .
قبل أن أعبّر له عن بالغ الشكر وجدتهُ يُطلِق زفرة ضيق مستطردًا :
- لكن المشكلة هى إللّي "خالد" إتكلم فيها .. هنعمل إيه في الحكومة إللّي هتقلب الدنيا علينا ؟ .

أشعل "خالد" سيجارة وهو ينظر له قائلا : المشكلة مِش كبيرة ولا حاجة، إحنا إللّي علينا نفكر في حد يشيل الليلة وأنا بطريقتي ممكن أوجّه تفكير المباحث له ، إنما المشكلة الكبيرة هى إن "صباح" عمرها ما قالت .. خلّيك هنا بلاش تفارق ، واللهِ يا راجل إللّي قالتها "وردة" .
لأوّل مَرّة أجد "خالد" يُطلق دعابة مِن أيّ نوع ، مما جعلنا نضحك فعلا، تأمّلت وجوههم وسط الضحكات ، فوجئت أني الفتهم جدًا ، لدرجة أني أستطيع القوْل ـ بثقة ـ أني أحبهم .
نعم أحب "خالد" رغم صرامته وحِدّته وأحيانًا خشونته ، أحب "بيبو" رغم مُحاولاته الدؤوبة لتشويه التراث ،وبالطبع أعشق "سوكا" خاصةً عندما تُراقص حاجبيها بدلع كما تفعل الآن قائلة :
- خلاص يا جماعة .. حِوار كبش الفِدا إللّي مِش لاقيينه ده عندي.
مدّت يدها وفتحت تابلوه السيّارة حيث توجد عِدّة خطوط محمول مسروقة ، إنتقت إحداها وهى تسألني برقة :عم "حمدي".. هوّ الراجل إللّي سرقك وبلّغ عنك..الراجل الواطي ده كان إسمه إيه؟
لم أدري مغزى سؤالها لكني أجبت ببساطة .. "عبد العاطي سعيد" .
أطلقت ضحكة عابثة طويلة وهى تقول : مِش خسارة في طيبة قلبه .
وببساطة طلبت النجدة وبعد لحظات : آلو .. النجدة ، والنبي ياخويا عايز أبلّغ عن جريمة قتل .
سمعت صوت خشن يقول بإستخفاف : قتل كده مَرّة واحدة .
ردّت بصوت أكثر إستخفافًا : لا ياقلبي قتل بالتقسيط .
نَهرها الرجل قائلا : إنتِ بتتصلي عشان تهزّري يا سِتْ إنتِ ؟ .
أجابتهُ بصرامة : لا يا خويا ، أنا لا بهزّر ولا حاجة .
ثم أخذت شهيق قوي ملأ صدرها بالهواء قبل أن تقول بصوت يصعُب تكذيبه .. أنها كانت عائدة إلى قريتها بعد حضور حفل زفاف ، في طريقها شاهدت الحاج "عبدالعاطي" صاحب الأرض يتشاجر مع رجل آخر بسبب خِلاف على سِعر قطعة آثار ، وإنتهت المشاجرة بأن الحاج

ضَرَبَ الرجل الغريب على رأسه حتى فقد الوعىْ ،ثم حفر حفرة كبيرة بجوار الساقية وألقى الرجل فيها.
فـي النهايـة إصـطنعت البُكـاء والإضـطراب وهـى تُمليـه عنـوان القريـة وتُعيد عليه مكان الجثـة ، وقبـل أن يسـألها عـن بياناتهـا كانـت قد أغلقت الخط ثم إنتزعت الشريحة وكسرتها وقذفتها مِن السيّارة .
وبإبتسامة عذبة وجّهت حديثها إليّ قائلة :
- هو مِش الراجل ده زعّلك يـا عم "حمدي" وبلّـغ عنّك ، يبقـى يستاهل إللّي يجرى له .. حق ربنا .
مَنحها "خالد" إبتسامة تقدير بالغة وهو يهزّ رأسَه مُوافقًا :
- إختلفوا على سِعر حِتّة آثار .. يا بنت الإيه ، ملعوبة يـا "سوكا" ، وكمان لابساه لابساه ، ده القتيل في أرضه وفـي بـلاغ ضِـدّه ، يعني لو حَلَفْ مِن هنا للسنة الجاية برضه هيشيلها .
أمّا "بيبو" فقد تحسس شعرها بحنان قبل أن يغمز لها قائلا بتنهيدة حـارة ما توقعت أن يقوله :
- والنبي واحشني .. آه يا قلبي يالّلي دايب .

ـ ٩ ـ

شهيّتي اليوم مفتوحة ليس للطعام ، إنما لكتابة المشهد الأخير ، إستيقظت في الحادية عشرة فاليوم السبت أجازة مِن العَمَلْ ، لكن في الأيام المعتادة أستيقظ قبل الثامنة ، أدّيت طقوسي الصباحية قبل أن أشير لـ "بدريّة" مديرة المنزل أن تُحضِر الإفطار في الشرفة ، كمْ أعشق شُرب الشاي في مواجهة البحر مباشرةً ، كيف لم أهتم طوال عمري بلقطة كهذهِ ؟ ! .

إرتديت الروب الحريري التي أهدتني "سوكا" إيّاه في عيد ميلادي الأخير وجلست في الشرفة ، ومعي قلمي وأوراقي .. لكن مِن أينَ أبدأ؟. آه بداية جيّدة .. ليلة زفاف "بيبو" و"سوكا" ، كان هذا بعد أن هدأت الأمور في قضية مقتل "التاجي" التي لم تستغرق وقت طويل ، فالجاني معروف .. وهو "عبد العاطي" صاحِب الأرض أو سارقها ، كل هذا مُتوقّع كما رسمناه ، إنما المُثير للدهشة أن "عبد العاطي" أنكر كل التُهَمْ في البداية ، لكن في النهاية إعترف بإرتكاب الجريمة ، أكّدَ "خالد" أن هذا طبيعي لأنه إن لم يفعل فسيقضي وقت أطوَلْ في التعذيب مع كل أفراد أُسرته ، ضابط المباحِث المُحِقق في القضية يُريد جاني ، ومَن أفضل مِن مَن وجدوا الجثة في أرضِهِ طازجة بدمائها .

أَقَرّ "خالد" بهذه الحقيقة ثم إختفى ، إستيقظنا ذات يوم فوجدناه أخَذَ حقيبة أموالِه وإنصرف ولم يأخذ جنيه واحد مِن حقيبتي ، حاولت مِرارًا الإتصال به لكنه لم يرُد ، يبدو أن طبع الأفاعي مُتأصّل فيه فقرّر الرحيل فجأة وبصمت .. دون وداع .

بعدها بحوالي شهر أخبرني "بيبو" أنه حَجَزَ طاولة في فندق على النيل لنحتفي ونحتفل بعقد قرانه على "سوكا" ، ثم إستطرد بلهجة ساخرة :

- أنا قُلت كفاية ترابيزة ، ما أنا لو حجزت قاعة .. أجيب معازيم مِنين ؟ .

هذا ما إتفقنا عليه مع توصيّات شديدة مِن "خالد" قبل إختفائه ، نحن الآن أشخاص جديدة ، وُلِدنا مِن جديد ، أي تواصل مع الماضي معناه لفتُ الأنظار إلينا و .. كشف أمرنا .

أخَذَ "خالد" يُشدد على هذه الجزئية لترد عليهِ "سوكا" ضاحكة :

- يا باشا الكلام ده تقوله لنفسك ، إحنا أصلا مقطوعين مِن شجرة، لا لنا أهل ولا حد يسأل علينا.

بالرغم مِن قسوة هذه الإجابة لكنها حقيقة للأسف ، بالفعل ليس عندي مَن يهتم لأمري أو أهتم به .. سِواهم ، لذلك إزددتُ إلتصاقًا بـ "بيبو" وعلى الأخص بعد رحيل "خالد" .

ليلة الزفاف دخلت الفندق مُتأبّطًا ذراع "سوكا" التي سلّمتها إلى "بيبو" عند الطاولة التي جلسا عليها متجاوران ، أخذت مقعدي بجواره أمّا "هدير" و"سوزي" الصغيرة فجلسا بجوار "سوكا".

أوّل مَرّة أرى "هدير" ، فتاة بسيطة جدًا ، طيّبة لدرجة السذاجة ، ربما إتخذَت "سوكا" كقدوة لن تصِل إليها ، كذلك "سوكا" إتخذتها أداة تحرّكها كيفما تشاء وقتما تريد .

دقائق وأتى أحد المصورين يعرض علينا أخذ بعض الصور التذكاريّة تخليدًا لهذه الليلة ، أخذنا وضع التصوير وقبل أن يلتقط أوّل صورة سمعنا صوت "خالد" قائلا :

- إيه يا "بيبو" .. ما أنا قُلت لك إني جايْ ، كِده برضه تتصوّروا مِن غيري ! .

كانت مفاجأة سعيدة جدًا بالنسبة لي ، عانقته مُعاتبًا على رحيلِه المُفاجئ، إبتسم مُتمتمًا بكلمات غير مفهومة وهو يعانق "بيبو" بمودّة ، ثم إلتفت لـ "سوكا" مُصافحًا وهو يقدّم لها علبة مخملية بها عقد ماسي برّاق ،لم يُصافِح "هدير" ـ ربما لم يرها ـ أخيرًا قبّل "سوزي" في وجنتيها بحنان إلتقطنا الصور وأكملنا الليلة مع نوادر "بيبو" وحكاياته ، مع تخطّي عقارب الساعة لمنتصف الليل ، صعد "بيبو" مع "سوكا" إلى جناح بالفندق قمت بحجزه ، في حين إستقلت "هدير" سيّارة أجرة مع الطفلة ،

خرجت مِن الفندق مُترجلا مع "خالد" الذي فضّل السير قليلا على كورنيش النيل قبل أن يوصلني "باب الشعريّة" بسيّارته الجديدة ، مشينا صامتين لفترة ثم سألته بغتّة :

- مِش عارف أسألك إنتَ سِبتنا ليه ؟ ولا أسألك عامل إيه في حياتك الجديدة ؟.

هزّ رأسه بلا معنى ثم جَلَسَ على أريكة وجلست بجواره قبل أن يقول بصوتٍ صبغه الحزن :

- على فكرة السؤالين زيّ بعض والإجابة واحدة .. إنّي ضايع تمامًا .

تأمّل صفحة النيل لحظات ثم أشعل سيجارة أخذ ينفُثُ دخانها .. شخصيّتي الجديدة فرضت عليّ الإبتعاد عن أصدقائي القُدامى ، فالأيّام علمتني أن لا أثِقْ في مخلوق .

لم أرُدّ أو أعلق عليه لكنه نظر لي قائلا بحدّة .. نعم يا "حمدي" أنا مِثل الأفاعي لا أثِقْ في أحَدْ ، وإن لم تكن تعلم فها أنا أخبرك .. أنت أيضًا يا "حمدي" كذلك .

شعرتُ أن "خالد" بداخله بركان يجاهد لكبح حممه ، فلم أرغب في إعتراضه وتركته يسترسل قائلا .. قرّرتُ إلقاء الماضي خلف ظهري والنَظَرْ فقط للأمام ، لكني لم أستطِع نسيان أبي وشقيقي ، ذهبت أطمئن على أخبارهم ، وجدتُ والدي على شفا النهاية ، سيادة اللواء الجبّار يرقد حاليًا بالعناية المركزَة شِبه ميّت إكلينيكيًا ، تبقى فقط أن يفصِلوا الأجهزة .

حاولت مواساة شقيقي أو تركه يواسيني لكنه صَدَمني بمطالبته لي مغادرة المكان فورًا فزوجته وأولادِه على وشك الوصول ومجرّد رؤيتهم لي لن تكون في صالحي أو صالحه ، لأنه يُعاني الخذلان بسبب الفِعل المشين الذي إرتكبته أختي ومِن غبائي بالتبعيّة لأني وثّقت هذا الفِعل .

مِن النهاية كي لا أطيل عليك شعرت أن وجودي في حياته قد يُسبب له إزعاج كبير في أسرته وخاصة لأني أعلم كم أن زوجته إمرأة مُتسلطة . ثم أطلق زفرة ضيق عالية مُسترسلا .. في النهاية قرّرت مواجهة الحقيقة الصادمة وهى أني الآن مليونير لكن .. فقير جدًا ، لم تشفع شقتي الفاخرة أو السيّارة الجديدة التي إشتريتها في شيء ، ربّما حارس العقار الذي يمسح لي سيّارتي كل يوم أكثر مِنّي سعادةً ، على الأقل يجد مَن يتحدّث إليهِ كل مساء بينما أطفاله يلعبون حوله ، في حين أني أملك ما لن يملك رُبعَهُ إلى أن يموت وغير سعيد ، وكلما حاولت التفكير في بداية جديدة .. أجد نفسي عاجزًا ، لذلك فرحت للغاية بدعوة "بيبو" لي لحضور زفافه ، وصَمَتَ لحظة ثم قال بإبتسامة :

- هى دي إجابة سؤالك يا "حمدي" ، أنا فعلا مليونير .. بَسْ ضايع تمامًا .
- ما إنتَ إللّي مِشيت وسِبتنا يا "خالد" .

هزّ رأسه نفيًا وهوَ يقذف سيجارته في النيل : لا يا "حمدي" .. أنا مَشيت قبل ما "بيبو" يطردني ، خلاص العملية خلصت والقضية إتقفلت.. أبقى أقعد ليه ؟ .

هززت رأسي نفيًا قائلا بحسم : لأ .. إنتَ مشيت لأنك شايف إن قعدتك مع شِويّة حرامية ماتنفعش ، خليك صريح مع نفسك يا "خالد" .

همّ بالإعتراض لكني عاجلتهُ بصرامة .. منذ إلتقينا وأنتَ تظن نفسك مِن طينة أخرى ، تنظر لنا بإعتبارنا مِن درجة أقل ، مُجرّد لصين وعاهرة.. هذا ما أقنعت بهِ نفسك .. لا أدري لماذا ؟ .

عاد بظهرهِ للخلف وعلت وجهه إبتسامة ساخرة لم تمنعني مِن الإسترسال بوقار .. هل فكرت ولو مَرّة في معنى "القَدَرْ" ؟ ، هل سألت نفسك ما هو تفسير كلمة "نصيب" ؟ .

قاطعني مُتهكمًا : وإنتَ بقى لقيت تفسير ؟ مالك يا "حمدي" إنتَ كنت دكتور زراعة ولّا فلسفة ؟!

بالرغم أني منذ قابلته وأنا أخشى إثارة غضبَه ، لكن هذه المرة وجدتني مُصِرّ على إستفزازه ، لذا رددت عليه بنبرة ساخرة .. الموضوع لا علاقة له بالفلسفة .. الموضوع يتعلق بإعمال العقل فقط.
أسعدني تبدّل ملامحه مِن التهكم للغضب فطرقت الحديد ساخنًا .. الموضوع بإختصار أن "بيبو" وُلِدَ هكذا ، دون تربية أو عناية أو تعليم أو أيّ شيء ، لذا أصبح هكذا ، كذلك "سوكا" لم تجد مَن يضبُط سلوكِها، فأصبحت كما تراها ، أمّا أنا فكما تعلم لم أسرق أحد .. فقط أعدت ما سُرِقَ .
ثم نظرت في عينيهِ قبل أن أستطرد ساخرًا .. كذلك أنت وُلِدت شديد الغضب مُنفلِت الأعصاب ، فوجدت نفسك قاتلا ، هذا هو "القدر" أو ما يُسمّى "النصيب" .. فهمت ؟ .
أرسَل عينيهِ بإتجاه صفحة النيل ، ثم أشعل سيجارة ولأوّل مَرّة يُعطيني لقب دكتور عندما قال :
- فلسفتك غلط يا دكتور ، لو كل حاجة نصيب ماكنش ربنا هيحاسِبنا ، الإنسان مُخيّر مِش مُسيّر.
ثم نظر بصرامة وإستطرد مُتهكمًا : هل فكرت في تفسير "ونَفْسٍ ومَا سَوّاهَا ، فَأَلهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" لو كان كلامك صَح كان ربنا قال "أرشدها" أو "أخبرها" مِش "ألهمها" ، إنت فاشل حتى في الفلسفة يا دكتور .
ظن أنه هزمَني ، تركته يدخن سيجارته مُنتشيًا بإنتصاره ثم أنهيت الحوار بالقاضية قائلا :
- كويّس ..طالما طلعت فيلسوف كده وعميق ،ما تيجي نعمل رهان إللّي يخسره يدفع مليون جنيه.
نَظَر لي بعيون مُتسائلة وأيضًا مُتحدّية فإسترسلت .. أنا أقول أننا أصبحنا أفاعي لأن القدر والنصيب فرَضَ ذلك علينا حتى مِن قبل أن نولد ، أنت تنكر هذا الكلام وتتبنى نظرية أننا صِرنا أفاعي لأننا قرّرنا بإختيارنا أن نكون كذلك ، إذن رهاني معك هو .. نحن ، نحن الآن مِن

ذوي الملايين ولا داعي إذن لوجود روح الأفاعي بداخلنا لإنتفاء السبب الرئيسي وهو الفقر .
وربتّ على كتفه بتحدي قائلا :
- إحنا الرهان يا "خالد" ، لو إتغيّرنا وبقينا شرفاء يبقى كلامي أنا إللّي صح وإن النصيب هو السبب في كل حاجة .. حتى الجريمة ، إنما لو الثروة مافرقتش معانا وبقينا برضه أفاعي .. يبقى حلال عليك المليون جنيه .

عقد حاجبيه مُفكرًا لحظات ثم أطلق ضحكة عالية على عكس عادته قائلا .. إتفقنا .
في اليوم التالي أخذت حقيبة ملابسي وإتجهت للإقامة في أحد الفنادق ، فلا يجوز تواجدي في الشقة عند عودة العروسين مع أني لن أجد شيئًا جديدًا لم يفعلوه أمامي .
بعد مرور عشرة أيّام إتصلت بـ "بيبو" وحدّدت موعد لزيارته ، في المساء إصطحبت "خالد" وعندما وصلنا فوجئت أن "بيبو" يبدو أكثر أناقة في منامته المنزلية الجديدة ، كما أن وجهه أكثر إستدارة ونصوعًا، مما جعلني أقول : إحلوّيت يا "بيبو" ، والجواز باين عليك .
جاوبني بضحكة مجلجلة : الجواز باين عليّ إزّاي ؟ ، مع إن "سوكا" هى إللّي حامل مِش أنا .
إعتبرته يُداعبني لكني فوجئت بإنتفاخ بسيط في بطن "سوكا" كما أنها تمشي بخطوات هادئة مع تحذيرات مُبالغ فيها مِنه بضرورة عدم إجهاد نفسها ، ظهرت الدهشة جليّة على ملامحي وأنا أتطلّع إليها ، مما جعلها تقول مُداعبة :
- في إيه يا عم "حمدي" ؟ .. عُمرك ما شُفت واحدة حامِل قبل كده ؟ ! .

حامِل !! .. كيف حامِل في الشهر الثاني مثلا وقد مضى على زواجهما فقط عشرة أيّام ، قرأ "خالد" تساؤلاتي كعادته فمال على أذني هامسًا :
- سؤال غبي قوي ده يا "حمدي" بصراحة .

سَمعه "بيبو" كعادته أيضًا ، فهزّ رأسه بأسف قائلا : فعلا والله .
بعد فاصِل مِن المُداعبات وأثناء إحتساء القهوة سألت "بيبو" عن المشروع الذي ذكرهُ سابقًا ، لأن المال وإن كان وفير فلابد أن ينفذ ذات يوم إن لم نستثمره ، أشعل "بيبو" سيجارته وهوَ يمرّ بعينه علينا قبل أن يعتدل مُتحدثًا كخبير إقتصادي :

- يا جماعة بعد خبرتي الكبيرة في الحياة أقدر أقول بإقتناع إن الشريحة الوحيدة في المجتمع إللّي بتطلع فلوس مِن جيبها بغباوة.. هى النِسوان .

توقعت أيّ إعتراض مِن "سوكا" وكعادتها فاجأتني قائلة : ما شاء الله عليك .. أستاذ ورئيس قسم .
مَنحها إبتسامة حانية ثم أكمَل .. إذا سألت أي رجُل عن هوايته فستتلقى أيّ إجابة ، مَن يُجيد لعب الكرة .. أو النَرد ، مِنهم مَن يهوى صيد السمك .. أو النساء ، ستسمع أي هواية في الدنيا لكنك أبدًا لن تجد رجل واحد يهوى التسوّق ، مع أنها هواية النساء المُفضلة والأولى والأساسيّة وقد تكون الوحيدة ، المرأة تتجه للصرف طالما في حقيبتها نقود .. وهنّ الهدَف .
أطفأ سيجارته وهو ينظر لنا بإبتسامة عريضة قائلا بطريقة مسرحيّة : المشروع الوحيد المضمون في ظل الفترة العصيبة التي نعيشها هو .. مصنع إنتاج أدوات التجميل .
كتمت الضحك بصعوبة ، فقد ألقى عبارته كأنه يقول : مصنع للحديد والصُلب مثلا .
نظرت لـ "خالد" فوجدته يستمع بتركيز إليه وهو يستطرد .. نبدأ العمل بالبحث عن قطعة أرض خارج "القاهرة" ، أقترح العاشِر مِن رمضان أو برج العرب ، ثم نقوم ببنايتها وتأسيسها .. .
قاطعته بغتّة : بَس يا "بيبو" مشروع زيّ ده أكيد هيتكلّف كتير وأنا مِش ناوي أغامر بكل فلوسي ، البَلَدْ على كف عفريت وممكن يطلع قرار يضيّعنا في أيّ لحظة .

أجاب بثقة : ولا أنا ناوي ألعب بكل فلوسي يا عم "حمدي" ، إحنا نجيب حِتّة الأرض ونبنيها ، بعد كده ناخد قرض مِن البنك بضمان المصنع ، بفلوس القرض نشتري الآلات والمواد الخام .
مِن الواضح أنه دَرَسَ المشروع بدقة ، فقد كان يجيب بثقة على كل الأسئلة التي وجهها "خالد" أو أي إستفسار ألقيه عليه ، بعد شهر وجدنا قطعة أرض مُناسبة وشرِعنا في بنايتها .
كل يوم يمرّ يطالبني "خالد" بالمليون جنيه بإعتباره فائز بالرهان وأننا بعدما صِرنا أغنياء فقد تغيرت سلوكيّاتنا وقتلنا الأفاعي بداخلنا .
عندما بدأت قناعاتي تهتز ، إذ بنا ذات يوم نجد سيّارة نقل عليها أربعة أشخاص آتية نَزَلَ ركابها وكانوا مِن بدو المنطقة مُهددين أن علينا دفع أتاوة شهريّة لهم إذا أردنا إكمال بناء المصنع .
فجأة وجدت "خالد" وقد إستيقظت الأفعى بداخله ينقض عليهم في معركة لم تدم أكثر مِن دقائق ، ثم إنتهت بالأربعة رجال مُكبّلين الأيدي والأرجل قبل أن يُلقيهم في خيمة ، لم يكن "بيبو" موجود وعندما أتى وعرِفَ بما حدَثْ ، إقترح التفاوض مع البدو درءًا لمشاكل كبيرة قد تحدث ، لكن قوبل إقتراحه برفض شديد مِن "خالد" الذي قام بعمل إتصال بأخيه وطلب مِنه التصرّف . وإحقاقًا للحق فقد أثبت "خالد" أن عائلته بالرغم مِن وفاة والده لكنها لازالت تتمتع بنفوذ قوي ، فقد وجدنا الشرطة تُحرّك حملة كبيرة وتهاجم قبيلة البدو وتعتقل كبار شيوخها ومِن ثمّ أجبرتهم على الإعتذار وتوقيع إقرار بعدم التعرّض، كل هذا في وقت ما كان يُسمّى بالإنفلات الأمني .
لن أنسى منظر "خالد" وهو يُكيل الضرب للرهائن الاربعة قبل تسليمهم لذويهم ثم حَرَقَ سيّارتهم ، وقتها هَمَسَ "بيبو" في أذني قائلا : طيّب ما كان يرحم العيال دي ويغتصِبها وخلاص أحسن .
تلك الليلة أَصَرّ "خالد" على المبيت في الموقع مع عمّال الحراسة ، قبل إنصرافي مع "بيبو" صافحتهُ قائلا بمكر : عندك مليون جنيه .

إحتقن وجهه بشدّة وهو يقول : ده بَدَلْ ما تشكرني إن مفيش كلب بعد كده هيتجرّأ علينا .
هززت رأسي مُوافقًا : طبعًا.. هو يعني ينفع كلب يتجرّأ على أفاعي ؟ .
أطلق زفرة ضِيق وتركني وإنصرف ، بعد ذلك دار البناء على قَدَمْ وساق وشارف المصنع على الإكتمال قبل موعده المُحدّد ، بالتالي بدأنا إجراءات القرض مِن البنك في نفس توقيت إحتفال "سوكا" و"بيبو" بمولودهم الأوّل الذي رفضت "سوكا" أن تُسمّيه "حمدي" بإعتبار هذا الإسم قديمًا ومستهلَكًا ، في حين وافقت على تسميته "الخطيب" كما إقترح "بيبو" مُتغاضية أن هذا الإسم أكثر قِدمًا وإستهلاكًا .
نجحنا في إعداد كل الاوراق القانونيّة المطلوبة ثم تقدّمنا لطلب القرض وكلنا ثقة في الحصول عليهِ ولِمَ لا ، أوراقنا سليمة ، سُمعتنا لا تشوبها شائبة ، المصنع وهو الضمان موجود..لِم لا إذن ؟
لذلك صُدِمنا مِن رفض البنك حصولنا على القرض لأسباب واهية ، وعندما تعمّقنا في الموضوع وجدنا أن بإمكاننا الحصول على القرض ، لكن ينبغي دفع رشوة نصف مليون جنيه لمدير البنك أولا ، لأننا كما قال سنكسب كثيرًا جدًا ، في حين أنه سبب مكاسِبنا لن يكسب شيئًا وهذا ليس عدلا .. هكذا أقنع نفسه ليبرر تعاطيه الرشوة .
إقترحت عليهم دفعْ المبلغ حتى لا يتوقف العمَل ونخسر ما أنفقناه ، وافقني "خالد" بإعتبار أن هذه حتميّة جبريّة ، لكن "بيبو" إستنكر مدعومًا برفض "سوكا" القاطع مع تعهّدها بحل هذه المشكلة .
لم يمُرّ أسبوعان حتى علمت مِن "بيبو" أننا حصلنا على القرض بفائدة أقل وتسهيلات أكثر في السَداد ، عندما عبّرت عن دهشتي ردّت "سوكا" بضحكة عالية وهي تقول :
- أصل مدير البنك طَلَعْ راجل وِسِخ وعينه زايغة ، مع إن مراته زيّ القمر ، بَسْ نعمل إيه بقى في طَبعْ الرجالة .. يالله يستاهل مِش خسارة في طيبة قلبه .

رد "بيبو" ضاحكًا : وأنا مالي أنا يا "سوكا" !! .

داعبته بنعومة : أنا بقول الرجالة العادية ، إنما إنتَ سيد الرجالة يا بيبي.
إرتسمت الضحكة على وجهي مُتخيلا ما فعلته مع مدير البنك بمساعدة "هدير" ، حقًا .. إن كيدهنّ عظيم ، لكني لم أصرّح بهذا ، فقط إقتربت مِن "خالد" قائلا : عندك مليون جنيه .
نظر لي بدهشة ثم قال : ده بَدَلْ ما تشكرها إنها وفّرت لنا الفلوس إللّي الخنزير ده كان هيلهفهم .
هززت رأسي موافقًا : طبعًا .. هو مِن إمتى الخنزير عَرَفْ يقرّب مِن أفاعي .
سحبنا القرض وسافر "بيبو" مع "خالد" إلى "الصين" لإستيراد الآلات والمواد الخام .
ذات ليلة وأنا أُشرِف على اللمسات النهائيّة في المصنع وجدت "سوكا" قادمة محتقنة الوجه قائلة:
- أستغفر الله العظيم يارب .. والله ما انا عارفة ألاقيها مِنين ولا مِنين ؟ .
- خير يا "سوكا" .. حَصَلْ إيه ؟ .
هزّت رأسها بأسف : تخيّل "هدير" طَلَعْ لها صوت وقال إيه عايزة تتجوّز .. والله عال !! .
لم اتمكن مِن معرفة سِر غضبها مِن هذه الزيجة ، سألتها مباشرة عن سبب ضيقها ، نظرت لي كمّن تنظر إلى طفل ابله ثم صاحت : إزّاي بَسْ يا عم "حمدي" ، ما هى لمّا تتنيّل تتجوّز .. مين بقى ياخد باله مِن "سوزي" ؟.
لست ادري لماذا تتعامل "سوكا" مع تلك الصغيرة كطفلة سِفاح ، ربما لأنها تذكرها بأيّام تستميت لتنساها ، في كل الأحوال لابد مِن إغتنام الفرصة ، أجبتها بثبات :
- مفيش مشكلة يا "سوكا" .. أنا هاخد البِت دي أربّيها .
نظرت لي مُتشككة ، فإستطردت بإبتسامة هادئة : هديّة وجاتني مِن السما .. أقول لها لأ ؟ ! .

وقد كان ، منذ ذلك اليوم و"سوزي" الصغيرة تعيش معي في هذه الفيلا الصغيرة التي إشتريتها بإحدى القُرى السياحيّة القريبة مِن منطقة "برج العرب" .. حيث المصنع .
بعد عودة "خالد" و"بيبو" مِن "الصين" والإتفاق على كل شيء وقبل ضربة البداية التي نحرص جميعًا أن تكون قويّة ، فوجئنا بعائق كبير وأخير .
مطلوب تخليص أوراق مِن وزارة الصناعة وهيئة الإستثمار وعِدّة هيئات بعضها غير مُتداخِل معنا مِن قريب أو بعيد لكن يجب أخذ مُوافقتهم ، هكذا إصطدمنا باكبر العوائق .. البيروقراطيّة .
تركتهم يسعوا ويحاولوا في كل إتجاه ، في النهاية عبّرت لهم عن إمتناني للمجهود الكبير المَبذول دون طائل ، ثم أشرت عليهم أن يسمعوني ويتعلّموا .
جلسوا امامي كتلاميذ وأنا أخبرهم أن مدير مكتب وزير الإستثمار مرتشي قديم ، فقد كان زميلي أيّام عملي بالوزارة ، مرّت سنوات وقامت ثورات وتغيّر وزراء وهو قابع في كرسيه لا يبرحه ، ربما لأنه يملك مِن الذكاء والحذر ما يكفي ليحمي بِهِ نفسه مِن تقلبات الأمور ، أخبرتهم عن مواطِن ضعفه وما أعرفه عن ماضيه المُلوّث المُخفى بمهارة .. ثم تركتهم يتعاملون .
بعد نجاحهم في إنهاء كل الامور المُتعلقة وقبل الإفتتاح بأيّام ، وجدت "خالد" يداعبني واضعًا ورقة في جيب قميصي قائلا : الله ينوّر يا "حمدي" .. صحيح لدغتك والقبر .
أخرجت الورقة ونظرت فيها لأجدها شيك بمليون جنيه ، فوجئت بنفسي أقول مشدوهًا :
- ده بَدَلْ ما تشكرني إني عرّفتكوا إزّاي ترعبوا تعلب زيّ ده عشان يخلّصنا .
رد بدهاء مُستمتعًا بعكس الأدوار : طبعًا .. ما لازم التعلب يترعب مِن الأفاعي .

ثم منحني إبتسامة غامضة وإنصرف ، ها هو الشيك قابع في درج مكتبي ولم أصرفه ، لأني ببساطة غير قادر على تحديد أفائز أنا بالرهان أم خاسِر ؟ .
منذ إفتتاح المصنع وتوزيع الأدوار لم أرهم أبدًا كأفاعي هذا يُثبت أن الشر إختيار ..والخير أيضًا.
"خالد" يتعامل بكفاءة كمدير لأمن المصنع ، وقد وَجَدَ ضالته في هذا التخصص ، فبإمكانه عَمَلْ تحقيق إن سُرِقت علبة طلاء بخمسين جنيهًا ولن يمُرّ اليوم إلا بتحديد السارق وإعترافه بالطبع .
"سوكا" تألقت في إدارتها لشئون التوزيع بالرغم مِن عدم عملها في هذا المجال لكنها موهوبة فيه ، كما إستطاعت عمل توازن بين عملها وطفليها و"بيبو" طبعًا أو "بيبي" كما تحب أن تُناديه .
أمّا "بيبو" فتركنا له إدارة المصنع الذي نجح فيها بإمتياز ولازال يردد في كل مناسبة أن نجاحه عائد لمساندة "سوكا" له فهى دائمًا وأبدًا .. "قلبه إللّي دايب" .
أخيرًا أنا سعيد جدًا لوجود "سوزي" في حياتي بضحكاتها وطفولتها وبراءتها التي أعشقها وأعشق إهتمامها بي ، كذلك سعيد بدوري كمدير لا يدير شيء ، تاركًا الإدارة للرؤساء الفعليين .
هؤلاء الرؤساء الذين يبدون ويتعاملون مع الجميع مِثل البشر ، لكني كلمّا تذكرت الشيك ذي المليون جنيه ، أيقنت أن هولاء الثلاثة وأنا معهم نتشبّه فقط بالبشر ، إنما الحقيقة أننا نشبه البشر فعلا لكن بقلوب.."الافاعي" .

تمت بحمد الله .

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعاده إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال او تدواله الكترونيا نسخا
او تخزينا دون إذن خطي من الدار